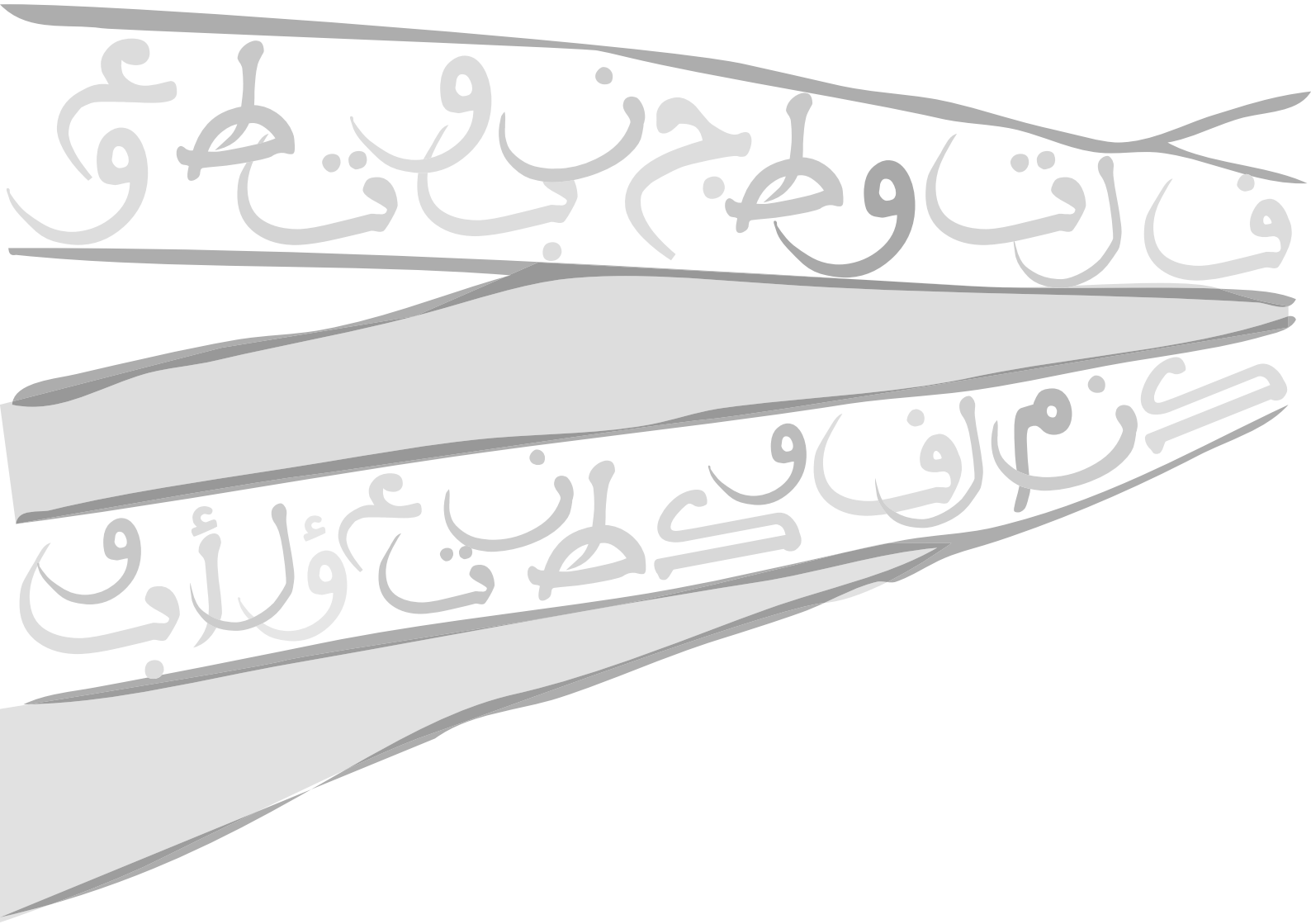

بطولة الحياة

كتابات أطفال فلسطين

١٩٩٦- ٢٠٠٩

قراءة في المضامين

د. إبراهيم أبو هشهش

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

الناشر:

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي

ص.ب ١٩٧٣، رام الله- فلسطين

هاتف: ٢/٢٩٨٦١٢١ ٠٢

فاكس: ٢٩٨٨١٦١ ٠٢

البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com

الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

Tamer Institute for Community Education

P.O Box: 1973, Ramalla- Palestine

Tel: 02 2986121/2

Fax: 02 2988161

E-mail: tamer@palnet.com

Website: www.tamerinst.org

© جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

لا يجوز إعادة طباعة الكتاب أو ترجمته أو نقل أجزاء منه بأي شكل من الأشكال إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

الطبعة الأولى ٢٠١١

صدر هذا الكتاب بدعم من الممثلية النرويجية

THE REPRESENTATIVE OFFICE OF NORWAY
TO THE PALESTINIAN AUTHORITY

الإخراج الفني: **أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552**

مقدمة

كيف تنظر مؤسسة تامر إلى إصدار «كتابي الأول»؟

بدأت تجربة "كتابي الأول" في مؤسسة تامر في العام ١٩٩٦، وأعلنت المؤسسة عن هذه المسابقة للمرة الأولى خلال أسبوع القراءة الوطني، ليستمر هذا التقليد حتى هذا اليوم، وقد تحوّل "كتابي الأول" إلى إصدار سنوي لا يقل أهمية عن أي إصدار آخر، إن لم يتجاوزه أهمية، مرسخاً أحد أهم أهداف المؤسسة ألا وهو التشجيع على الكتابة والقراءة.

استندت المؤسسة في إطلاق هذه المسابقة إلى رؤيتها في أهمية إشراك أطفال فلسطين في العملية الإنتاجية الإبداعية، لإدراكها ووعيها بأهمية وجود فسحة تعبيرية خاصة بهم، مهمتها استيعاب ما ينتجونه من أدب وفن دون تدخل أو توجيه، خصوصاً في ظروف كالتي عاشها هؤلاء الأطفال ومازالوا، من احتلال وتشريد وحصار، تجعل الكتابة أحد أهم وسائل التفريغ النفسي وتعزيز الثقة بالذات.

كانت النصوص التي تصل المؤسسة في السنوات الأولى لإطلاق مسابقة «كتابي الأول» محدودة من حيث العدد والمناطق، وقد بدأت المؤسسة بإدخال فكرة المسابقة إلى المدارس الخاصة لأسباب تتعلق بمحدودية عددها وسهولة العمل على تعميم الفكرة داخلها، في وقت كان من الصعب فيه الدخول إلى المدارس الحكومية إلا ضمن آلية واضحة ومن خلال وزارة التربية والتعليم. كما أن مشاركات قطاع غزة في هذا الإصدار جاءت متأخرة، ولأن المؤسسة لم تكن قد افتتحت مكتبها في غزة إلا بعد سنوات من بدء تجربة «كتابي الأول». ومع اتساع صدى الإصدار، ووجود منسقين للمؤسسة في كل المناطق على امتداد فلسطين، إلى أن تزايدت الأعداد وشملت المشاركات كل المدن الفلسطينية، وأصبحت المدارس الحكومية ومكتبات الأطفال والكثير من الجمعيات والنوادي التي تستقبل الأطفال، مصدراً رئيسياً لما يصل المؤسسة من مشاركات كل عام، والتي تصل أحياناً إلى أكثر من ٢٥٠ نصاً.

تعتمد المؤسسة آلية واضحة ومحددة في اختيار النصوص التي تنشر سنوياً ضمن إصدار «كتابي الأول»، إذ يتم إرسال ما يصل إلى لجنة تشكلها المؤسسة سنوياً، والتي تتكون عادة من كتاب ومهتمين في مجال أدب الأطفال، وتقوم اللجنة باختيار المجموعة التي تراها مناسبة للنشر معتمدة في قرارها على عدد من المعايير منها: أن تكون النصوص المختارة من إبداع الأطفال أنفسهم وألا تكون منقولة أو قريبة من أي نص سبق وأن مرَّ على أحد أعضاء اللجنة. وفي النهاية يتم اختيار مجموعة النصوص التي لاقت إجماعاً من كل أو معظم أعضاء لجنة التحكيم، وتنشر النصوص كما هي، أي دون تدخل من قبل اللجنة أو المؤسسة فيما يتعلق بمضمون القصة أو حبكتها أو لغتها، ويقتصر التدخل على التدقيق اللغوي الذي تخضع له كافة النصوص التي تنشر عن المؤسسة، وذلك للتأكد من خلو النصوص من الأخطاء الإملائية واللغوية، خصوصاً وأن ما يصدر عن المؤسسة موجه بالدرجة الأولى إلى الأطفال والفتيان، مع أن القراء بالتأكيد لا يقتصرون على هاتين الفئتين فقط.

وبما أن إصدار «كتابي الأول» هو نصوص ورسومات للأطفال، فإن المؤسسة تعلن عن أن النصوص لا بد وأن تكون مرسومة وملونة، وبالتالي فإن المؤسسة تقوم بنشر النصوص التي اختارتها اللجنة مع رسوماتها في حال كانت هذه الرسومات مكتملة وواضحة الألوان، وفي حال كانت النصوص غير مترافقة مع رسومات أو أن الأخيرة لم تكن مكتملة وواضحة بحيث تصلح للنشر، فإنها تقوم بإرسال النصوص إلى مجموعات من الأطفال، سواء داخل المدارس أو مكتبات الأطفال، ليقوموا برسمها ومن ثم تختار الأنسب ليرفق مع النص الذي اختارته اللجنة للنشر، وتقوم المؤسسة عادة بطباعة ١٥٠٠- ٢٠٠٠ نسخة من

هذا الإصدار سنوياً، ويوزع مجاناً مع ما تقوم بتوزيعه سواء داخل المدارس أو مكتبات الأطفال، كما أنه يباع في معارض الكتب العربية والدولية التي تشارك فيها المؤسسة على مدار العام.

إن من يتتبع إصدارات «كتابي الأول» على مدار السنوات العديدة، سيدرك تماماً مدى التغيرات التي تطرأ على مضامين القصص التي يقدمها الأطفال، وهذا يؤكد على أنهم سريعي التأثر وأكثر إدراكاً ووعياً لما يحدث حولهم مما نعتقد نحن كبالغين. فالحياة السياسية الفلسطينية والوضع الاقتصادي والتغيرات الاجتماعية تلقي بظلالها بشكل واضح على ما ينتجه الأطفال على امتداد الوطن. فعلى سبيل المثال، لا تكاد تخلو مشاركات أي عام من الأعوام من قصص ذات صلة بالنكبة الفلسطينية واللجوء وحق العودة، وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة وبعيدة عن التسميات المتعارف عليها، وهذا بالتأكيد يعكس مدى تأثر الأطفال بالمحيط الذي يعيشون فيه وبما يتناقله البالغون حولهم، فهم على الرغم من أنهم لم يعاصروا النكبة إلا أن مخزونهم الثقافي المكتسب من المحيط، والشعور بالانتماء للوطن الأكبر على الرغم من صغر سنهم، يظهر جلياً في نصوصهم.

و الحرب الإسرائيلية الأخيرة على قطاع غزة، والتي شكلت عبئاً نفسياً ثقيلاً وكانت الهم الوطني الأعمق منذ سنوات، ظهرت تأثيراتها هي الأخرى بشكل شديد الوضوح على إنتاجات الأطفال في ذلك العام، فتجاوزت مشاركات أطفال غزة كل المشاركات الأخرى، وتمحورت جميعها، بما في ذلك الكثير من مشاركات الأطفال من مدن فلسطينية أخرى، حول الدمار الذي تسببت فيه قوات الاحتلال على كل المستويات، واستطاعت نصوصهم أن تعكس حجم الأذى النفسي والمادي الذي لحق بهم وبعائلاتهم، وكانت تلك الحرب هي الشغل الشاغل لهم وهو ما ظهر تلقائياً في ما قدموه.

وفي سنوات أخرى، أي السنوات التي كانت تخلو من مشاهد سياسية محددة وواضحة، أو أحداث كانت ذات بعد عام، تنوعت النصوص التي وصلت المؤسسة من حيث الموضوعات، ولكنها كذلك لم تكن تخلو من التأثيرات الاجتماعية والقيم الأخلاقية السائدة، والتي يكتسبها الأطفال ضمن إطار العائلة أو المدرسة أو المكتبة التي يرتادونها، ومن هذه الموضوعات: العائلة وقيم الأسرة، الصداقة، الصراع بين الخير والشر وانتصار الخير، قصص الحيوانات والتي أيضاً تحمل أبعاداً اجتماعية وقيماً على ألسنتهم، الاجتهاد والإصرار وغيرها مما هو مرتبط بالحياة اليومية للأطفال.

وحتى في الفترات التي كانت مزدحمة بأحداث كبرى أو قضايا طارئة على الصعيد الفلسطيني، كنا دائماً نجد نصوصاً بعيدة تماماً عن الواقع المحيط أو عن التداعيات الأكثر تأثيراً، وإن كان هناك سبب وراء ذلك فهو أن الطفل الفلسطيني هو كأي طفل في العالم، يرى من العالم ما يريد ويتحدث عن القضايا التي يراها أكثر أهمية، انطلاقاً من نظرته الطفولية. فهو في الوقت الذي يعيش فيه مع الآخرين في واقع قد يكون قاسياً، بإمكانه العثور دائماً على فسحته الداخلية وعالمه الخاص الذي يرى فيه الحياة بمنظور آخر وبأبعاد أخرى، وبالتالي فإن هذا العالم يظهر في قصصه وحكاياته، وغالباً ما يكون ملاذاً من قسوة الحياة أو طريقة لتجميلها وإضافة نكهة إليها.

و كثيراً ما نلاحظ أيضاً أن لدى الأطفال جرأة كبيرة في طرح العديد من القضايا التي قد يجد البالغون عشرات الأسباب لعدم التطرق إليها، خصوصاً تلك التي ترتبط بالحياة الاجتماعية وما تفرضه من عادات وتقاليد يجد فيها الأطفال قيوداً وأسباباً للحد من الانطلاق والاختلاف، وذلك يكمن في أنهم مازالوا قادرين على التملص من هذه القيود الاجتماعية دون محاسبة، ولأنهم أيضاً، يمتلكون حساً فطرياً لم ترهقه تبعات البلوغة ولا أزمات التقدم في العمر، لديهم القدرة على تسمية الأشياء بأسمائها دون تجميل، ومؤهلين ليكونوا أصحاب نظرة نقدية عميقة لا ترضى بما هو أقل من الحقيقة.

قد لا يكون كل ما نشر في كتابي الأول ينبئ بحالة إبداعية متميزة تخرج عن المألوف، أو يبشر بما هو أبعد من المشاركة، خصوصاً وأن الهدف الرئيسي من هذا الإصدار هو خلق فسحة تعبيرية بعيدة عن سيطرة البالغين أو أحكامهم، وتمنح

الأطفال فرصة للكشف عن مكنوناتهم الداخلية وأحلامهم وآمالهم. ومع ذلك يمكننا القول بأن تجربة كتابي الأول كانت ملهمة للكثيرين من الأطفال الذين أصبحوا اليوم أكثر قرباً من حلمهم بأن يكونوا كتاباً وكاتبات. نحن لا ندعي هنا بالتأكيد بأن مشاركة هؤلاء الأطفال في تجربة كتابي الأول كانت السبب وراء ما نتج من إبداعات الشباب، ولكننا على يقين بأن التجربة كان لها ذلك الأثر النفسي، ولو الخفي، على إحساس هؤلاء الأطفال بثقة كبيرة جعلتهم ينظرون إلى أنفسهم بأنهم بذور لكتّاب مستقبليين، وأنهم قادرون على الإنتاج والمشاركة في الحالة الإبداعية العامة، مع العلم أن كثيرين منهم كانوا يدركون حاجتهم الماسة إلى تطوير قدراتهم وقاموا بذلك.

وما نريد قوله، هو أنه لا يمكن لأحد التشكيك بأثر الاهتمام المبكر والتعاطي بجدية مع إبداعات الطفولة، كما لا يمكن التشكيك بأثر النقيض المتمثل بالإهمال وتحجيم الإنجازات التي تعني للأطفال أكثر بكثير مما نتصور، فالإنسان في علم النفس الحديث هو نتاج سنواته الأولى، وكل ما سيكونه لاحقاً رهن بما نقدمه له على المستوى النفسي بشكل رئيسي، والاهتمام بما يقدمه هو أحد أهم عناصر تعزيز ثقته بنفسه وبالآخرين، وأحد أهم أسرار النشأة السوية والتميز المستقبلي.

ومن الجدير ذكره أن هذه الدراسة تمحورت حول النصوص التي احتواها إصدار كتابي الأول على مرّ السنوات، ومن هنا جاء العنوان «قراءة في المضامين»، وأنها لم تتطرق من قريب أو من بعيد إلى ما احتواه الإصدار من رسومات أنتجها الأطفال. ومن هنا تم العمل على إعداد دراسة أخرى تتناول الرسومات التي احتوتها إصدارات أدب الطفل، ومن ضمنها كتابي الأول، وقد تولى مهمة إعدادها كل من الباحث وليد احشيش والسيدة ليلى البطران والتي حملت عنوان «صورة الطفل في رسومات كتب الطفل الفلسطيني»، مع العلم أنه يمكن الوصول إلى الدراسة والاطلاع عليها من خلال مركز موارد أدب الأطفال في مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي.

إن أهمية هذه الدراسة في نظر المؤسسة يكمن في الحاجة الماسة إلى تقييم هذه التجربة بعد أعوام طويلة من الإنتاج، وفي الحاجة إلى معرفة مدى جدوى مثل هذا الإصدار، خصوصاً مع اتساع رقعة المشاركات وإمكانية حصول تدخلات من قبل بالغين قد لا تكون المؤسسة قادرة على اكتشافها أو التيقن منها.

تمهيد

نظرت هذه الدراسة في (٨٩) نصاً كتبهُ أطفال من فلسطين، تتراوح أعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة أغلبهم من قطاع غزة (٥٢ من غزة) والباقي (٣٧) من الضفة الغربية والناصرة، وكتب القسم الأكبر منها أيضاً فتيات (٧٣أنثى) مقابل (١٦ ذكراً). وتتراوح هذه النصوص بين القصة القصيرة، وهو الجنس الأدبي الغالب، والسيرة الذاتية والمقالة القصصية والتقرير القصصي الإخباري. وكان بعضها من ناحية الفن القصصي ناجحاً نجاحاً لافتاً، أما بعضها الأخر فلم يزد عن كونه مقالة قصصية تعيد سرد واقعة حياتية قد تكون حدثت مع الطفل كاتب القصة، أو أحد أفراد عائلته أو أصدقائه أو جيرانه أو مما سمع وشاهد، وخاصة في سنوات الانتفاضة الثانية وما نجم عنها من آلام تمثلت في القتل وهدم البيوت وتجريف الحقول وقطع الأشجار وتمزيق أوصال الوطن بالحواجز العسكرية والعوائق.. إلخ.

وتكاد كتابات الأطفال هذه تكون خريطة للوجدان الفلسطيني مرسومة بأقلام الأطفال وخاصة في الفترة الممتدة من ١٩٩٧ حتى ٢٠٠٩ أي الفترة الزمنية التي نشرت فيها هذه الأعمال، بل يمكن من هذه الناحية، ملاحظة استجابة مباشرة في كتابات الأطفال لهذا الوجدان العام منظوراً إليه ومعبّراً عنه من زاوية الطفولة، وقد عكست كتابات الأطفال هذه مناخاً عاماً يمكن من خلاله قراءة الواقع الفلسطيني الراهن في تجلياته المكانية والزمانية متمثلاً في الخطوط الرئيسة التالية:

أولاً: سيرة الطفولة الأولى.

ثانياً: عالم الطفل البهيج.

ثالثاً: الموضوعة الفلسطينية:

١- النكبة واستمرار الذاكرة.

٢- العودة من الشتات.

٣- الانتفاضة الثانية.

رابعاً- موضوعات وقيم واتجاهات أخرى:

١- الإعاقة.

٢- البيئة.

٣- قضايا تربوية واجتماعية مختلفة.

وهذا التصنيف إنما هو على سبيل الافتراض الدراسي، فقد تداخلت هذه الثيمات وما ارتبط بها من قيم زمانياً وموضوعياً بشكل عام، مع أن بعض الفترات الزمنية طبعت النصوص بطوابعها الخاصة، ويتمثل ذلك في إلحاح أحداث الانتفاضة الثانية إلحاحاً واضحاً على القسم الأكبر من موضوعات هذه النصوص، كما سوف يأتي. وسوف تحاول هذه الدراسة في

أثناء النظر في النصوص القصصية من باب الموضوعات الكبرى التي وسمتها، أن تقرأها في الوقت نفسه في سياق الواقع الفلسطيني المعاصر المرتبط بها، وخاصة بين سنتي١٩٩٧ - ٢٠٠٩، علماً أن زمن الأحداث قد يعود إلى فترات أسبق من زمن الكتابة. وفي الوقت ذاته سوف تربط قراءة النصوص هنا بين الموضوعات السائدة والقيم المرتبطة بها، سواء كانت هذه القيم ذائبة في عناصر النص المختلفة على نحو يقدّم الفن أولاً على المقولة المباشرة، مثلما في عدد لا بأس به من هذه الأعمال التي تقدم ذاتها بوصفها أعمالاً جمالية عبّرت عنها لغة الأطفال ورؤاهم ومشاعرهم، وشكلوها بما يمتلكون من لغة وخيال وعناصر مستمدة من عالم الطفولة البريء المتيقظ الذي يرى الحياة بشكل يختلف بهذه الدرجة أو تلك عن عالم الكبار، أو كانت هذه القيم خلاصات أخلاقية أو تربوية مقصودة في ذاتها بحيث لم يكن العمل القصصي سوى ذريعة لحملها وتوصيلها، كما في عدد آخر من هذه الأعمال.

كتابي الأول: الموضوعات والخطوط الرئيسية

١. سيرة الطفولة الأولى:

تُمثل مرحلة الطفولة الأولى موضوعاً لكتابة الطفل، وأن تكون بالتالي من أكثر الثيمات حضوراً في كتابات أطفال فلسطين، وخاصة ما بين عامي ١٩٩٧ - ٢٠٠٠.

وقد يكون ذلك عائداً، في تلك الفترة، إلى توجيه خاص من مؤسسة تامر التي رعت هذه الكتابات ونشرتها، حيث نشرت ما لا يقل عن عشرين كتاباً بين عامي ١٩٩٧ -١٩٩٩، تناولت قسطاً من حياة كتابها وخاصة في مرحلة الطفولة الأولى. هذا بالإضافة إلى عدد من النصوص والقصص القصيرة التي عبرت في مضمونها عن حياة الطفل في عائلته ونشرت ضمن مجاميع قصصية أخرى في فترات زمانية لاحقة.

مما يلفت النظر هنا أن أغلب هذه القصص والنصوص كتبها أطفال من الضفة الغربية غالباً، إلى جانب عدد آخر أقل من مدينة الناصرة، في حين لا يوجد بينهم أي طفل من قطاع غزّة، وخاصة حين يتعلّق الأمر بكتب السيرة المنفردة المنشورة بين عامي ١٩٩٧ - ١٩٩٩.

ومن الأمور الظاهرة التي يمكن أن يستنتجها القارئ للوهلة الأولى أيضاً، أن أغلب الأطفال كُتاب هذه النصوص من أسر ميسورة اقتصادياً، فأغلبهم من المدارس الخاصة، ثمّ إن أجواء القصص وعوالمها السردية والموضوعية تشير إلى ذلك أيضاً.

ورغم التداخل الواضح بين موضوعة السيرة المكرسة للطفولة الأولى مع موضوعات أخرى مثل استمرار الذاكرة أو الشتات الفلسطيني أو الانتفاضة، إلاّ أن هذا المبحث سوف يقتصر هنا على النصوص المكرسة بالدرجة الأولى لسرد جانب من مرحلة الطفولة في علاقتها مع عالمها الحميم المباشر أي العائلة والأصدقاء والمدرسة، وما شابه ذلك.

تتحدث قصة «**مشيئة الله**» (١٩٩٧) للطفلة جوانا جوني شاما (٩ سنوات – مدرسة المعمدانية/ الناصرة) بضمير المتكلم عن فتاة صغيرة تعيش مع عائلتها المكونة من الأب والأم والأخ الأصغر والأخ الأكبر، تقول إنها طفلة سعيدة تحب عائلتها ومدرستها، وهي متفائلة دائماً على الرغم أنها ولدت بجفن نازل سمعت بسببه كثيراً من الكلمات الجارحة من الناس، إلا أنها لم تحقد عليهم بل تدعو الله دائماً أن يسامحهم. ولم يؤثر هذا العيب الخلقي في روحها المحبة المتفائلة، وتقرر أن تكون، عندما تكبر، طبيبة عيون تعالج جميع الناس وتساعد المعوقين وتشجعهم.

أما الطفل صهيب طوطح (١٤ سنة – القدس/ مدرسة الفرير) في قصته «**أحلى الأيام**» (١٩٩٧) فيتحدث مباشرة عن نفسه وعائلته بدون أي تقنيع سردي، فيذكر أن أباه طبيب بيطري، أما أمه فهي متوفاة وهو يهدي إليها قصته هذه. وهذه القصة أشبه بتقرير عائلي مكتوب بلغة سلسة ونظرة متفائلة محبّة للحياة والناس. يتوقف عند اسمه (صهيب) الذي كرهه في البداية، ثم عندما أتيحت أمامه فرصة استبداله وخيّر بين أسماء كثيرة قرر أن يختاره ويحتفظ به. ثمّ يتحدث عن أهله ورحلاته معهم إلى الأردن ومصر وأمريكا واليونان، والوجبات التي يحبها والهوايات التي يعشقها وخاصة كرة القدم. وفي النهاية يختم بتقديم الشكر إلى مؤسسة تامر التي شجعته على الكتابة.

وأما الطفلة سهى خالد عسيلة (١٠ سنوات/ أم الفحم) في قصتها «**حياة شابة**» المنشور ضمن العدد الذي احتوى قصة «أحلى الأيام» السابق ذكرها (١٩٩٧) فتسرد بضمير المتكلم عن نفسها وعن تطور وعيها وإدراكها للناس وللحياة وللأشياء من حولها، وتقص بصراحة وصدق بعض ما عانت منه في أثناء ذلك، وخاصة من تأثير إحدى صديقاتها سلباً عليها وعلى

تحصيلها، وتذكر مدى حبها للمطالعة بل إنها تود لو تقرأ جميع ما في المكتبة من كتب، كل ذلك جاء بنظرة متفائلة جادة للحياة والمستقبل.

وكذلك فإن قصة «**دعاء وحلمها**» (١٩٩٨) للطفلة دعاء تعامرة (٩ سنوات/ مدرسة راهبات مار يوسف – بيت لحم)، عبارة عن سيرة ذاتية مروية بطريقة متخيّلة خلاقة على لسان جنين يولد في القدس في يوم ٩ شباط الذي صادف يوم إضراب كان فيه الطقس بارداً. يتحدث السرد بضمير المتكلم كيف ذهبت والدتها الحامل بها إلى القدس ويتوقف عند عملية اجتياز الحاجز، ثم أجواء مدينة القدس وانتظار الأب والجد في قاعة الانتظار، ثم مجيء شقيقها التوأم عيسى إلى الحياة قبلها بدقائق، وتعتبر أن يوم ولادتها يوم لا ينسى: «فقد كان يوماً تاريخياً من أيام فلسطين الوطنية، فما يزال مكتوبا على الجدران: «يوم إضراب التاسع من شباط». وهذه السيرة بطبيعة الحال مسرودة بأثر رجعي من حديث الأم لطفلتها التي صارت الآن في التاسعة من عمرها: «إن مدرستي حلمي، أشعر فيها بأنني فراشة تنتقل من زهرة إلى أخرى كي ترتوي وتتذوق جميع أنواع الزهور، وما زالت أمي تحدثني..».

وتشبه سيرة «**أنا وطفولتي**» (١٩٩٨) للطفلة ربا حنّا (٩ سنوات) من مدرسة راهبات مار يوسف/ بيت لحم أيضاً أجواء قصة دعاء تعامرة السابق ذكرها، فالسرد في كليهما يستند إلى ذاكرة الأم عن طفولة ابنتها المبكرة، ففي هذه القصة تروي الطفلة بسعادة غامرة عن مرحلة طفولتها الأولى وقت كانت ما تزال رضيعة، وذلك من خلال ما دونته الأم في دفتر خاص عن ذكريات وأحداث تعود إلى هذه المرحلة الأولى من حياة طفلتها الصغيرة، فتستعيدها الساردة في كتابها بروح مفعمة بالسعادة والبراءة والحب، على الرغم مما شاب لغتها من أخطاء نحوية كثيرة.

وتروي الطفلة غريس عوّاد (٩ سنوات) من مدرسة راهبات مار يوسف – بيت لحم في قصتها «**الكتاب صديقي**» (١٩٩٨) عن علاقتها بالمطالعة التي بدأت بعد أن أدركت عجزها عن كتابه موضوع تعبير في الصف، فتعود باكية إلى البيت، فتخبرها أمها أن ذلك عائد إلى عدم مطالعتها في الكتب، ومنذ ذلك الحين بدأت تحب المطالعة، بل تفوقت في ذلك وصارت تحصل على جوائز في هذا المجال، والأهم من ذلك أنها صارت مستقلة في تفكيرها بعد أن تكونت لديها حصيلة معرفية وفكرية، وأصبح الكتاب صديقها.

أما قصة «**طفولتي في سطور**» (١٩٩٩) للطفلة ربى مفيد الشريف (١٢ سنة/ البيرة) فهو توثيق مباشر لحياة الساردة منذ ولادتها في نابلس حتى انتقال أسرتها إلى البيرة، ثم دخولها الروضة والمدرسة.. إلخ، بل إن الجانب التوثيقي واضح أيضاً في الصور العائلية المثبتة في القصة. وهي سيرة ذاتية عائلية مكتوبة بأسلوب بسيط تعبّر عن سعادة الكاتبة بالحياة ومحبتها لأفراد أسرتها ومدرستها وأصدقائها. وتنهي قصتها بقصيدة بعنوان «أنا طفل فلسطيني».

وتشترك قصة «**دربي**» (١٩٩٩) للطفلة روان عدنان محمد داغر (١٢ سنة / البيرة) مع القصة السابقة في بنائها السردي من حيث أنها توثيق مباشر لحياة الطفلة منذ ولادتها في مستشفى المقاصد في القدس حتى انتقالها مع أسرتها إلى الأردن، ثم الاتحاد السوفييتي حيث أكمل الأب دراسته، ثم الولايات المتحدة حتى العودة إلى الوطن والاستقرار في مدينة البيرة، إلى جانب حديثها عن قريتهم «مزارع النوباني» واصفة طبيعتها ومناخها وأشجارها بكثير من الحب والاعتزاز. وتعرّج على ذكر بعض الحوادث الطريفة في حياتها، وتختم قصتها بأمنية «تحرير فلسطين الأبية وعاصمتها القدس».

أما قصة «**قصة نورس**» للطفل نورس كرزم (٨ سنوات/ البيرة) فهي أيضاً سيرة مباشرة مثلما يتضح من العنوان في إحالته على اسم الكاتب. وعلى الرغم من ميل هذه السيرة لتوثيق الحياة العائلية بطريقة مباشرة كما في الكتب السابقة، إلاّ أنها تربط بين العام والخاص بطريقة سلسة وبلغة قوية تشي بأنها أعلى من مستوى لغة طفل في الثامنة من عمره، وينمّ السرد عن وعي وطني واضح ومشاعر قوية، والطفل يهدي قصته إلى: «خالي المهندس الشهيد جورج ثيوردي الذي أحب هذا الوطن

واستشهد من أجله». ومنذ البداية يخبرنا عن اسمه واسمي شقيقيه ومكان سكنهم، ويخبرنا أيضاً أنه سأل والده عن سبب تسميته بنورس فيجيبه أن النورس طائر من طيور الساحل الفلسطيني، وهو أيضاً اسم عملية تبادل الأسرى بين إسرائيل والثورة الفلسطينية عام ١٩٧٩.

وهكذا يربط السرد بسلاسة وذكاء بين المصير الذاتي والمصير العام، ويخبرنا عن زياراتهم إلى الجد والجدة في حيفا، وعن حيفا وبحرها وهوائها وكرملها وقبة البهائيين فيها بطريقة تتضح فيها نباهة السارد وحبه للمعرفة وتعلقه بأسرته ووطنه وتأثير والده عليه وعلى توجيه وعيه المعرفي الوطني.

٢- عالم الطفل البهيج:

على الرغم من أن كتابات الأطفال مهما كان موضوعها يمكن أن تندرج ضمن موضوعة عالم الطفولة، سواء من جهة كتابها أو زاوية النظر للحياة. إلا أن الشرط الفلسطيني الخاص قد فرض نفسه على أجواء الكتابة وزوايا رؤيتها للحياة، فتداخلت عوالم الطفل مع عوالم الكبار وقضايا السياسة وواقع الاحتلال الذي عانى منه الطفل الفلسطيني أشد المعاناة بوصفه الحلقة الأضعف التي يمسّها هذا الواقع الاستثنائي من جوانب عديدة. ولذلك فإن هذا المبحث سوف يقصر اهتمامه على النصوص والقصص التي كرست نفسها تكريساً خالصاً لعالم الطفولة البريء الغافل عن هموم الكبار وهموم الوطن والسياسة التي يسيطر عليها ثقل الواقع وكآبته، وهو الأمر الطبيعي الذي يتوقعه أي قارئ يقرأ ما يكتبه الأطفال في أي بقعة أخرى من العالم.

وسنلاحظ أن هذه القصص تداخلت بشكل كبير مع النصوص المكرسة للسيرة الذاتية التي جرى تناولها فيما سبق من صفحات، سواء من حيث الموضوع أو الأجواء أو زمن الكتابة، أي الفترة السابقة على اندلاع الانتفاضة الثانية ثم اللاحقة لها وخاصة بعد عام ٢٠٠٦ بعد أن خفتت حدة الأحداث و تراخت قليلاً قبضة الحصار والحواجز والاجتياحات..إلخ، ومع استمرار هذه الموضوعة، وإن بشكل أقل، حتى في ذروة أحداث الانتفاضة في سنتي ٢٠٠٢ و٢٠٠٣. وسنلاحظ أيضاً أن أغلب هذه النصوص من الضفة الغربية و خاصة من القدس، وبعضها من الناصرة، وبشكل أقل من غزة، علماً أن عدد الأطفال المشاركين من غزة يزيد في المجموع الإجمالي على عدد بقية أطفال فلسطين، مثلما سبق ذكره.

وفي هذه القصص تشارك الحيوانات الأليفة والكائنات اللطيفة كالطيور والدمى والأزهار، الأطفال عوالمهم ومشاعرهم وأحلامهم، فقصة «**أنا وقطتي النغنوشة**» (١٩٩٧) للطفلة سيرين إلياس زريق (٨,٥ سنوات/ الناصرة) تتحدث عن علاقة الساردة بقطة صغيرة وجدتها في شوارع القرية في أثناء زيارة الأسرة لبيت الجد، فتستأذن جدها وأباها في العناية بها فيأذنان لها بالاحتفاظ بها في حاكورة البيت، وتواظب على العناية بها مصورة ذلك ببراءة وسعادة ولغة بسيطة معبّرة.

وتشبه قصة «**الصوص المحبوب**» (١٩٩٧) للطفلة أريج نادر بواردي (٩ سنوات/ الناصرة) القصة السابقة في علاقة طفلة بكائن أليف هو صوص صغير هذه المرة تتلقاه هدية من والدها مكافأة لها على علاماتها المدرسية الممتازة، فتنشأ بينهما علاقة تصورها الطفلة بكثير من البراءة والمحبّة لهذا الكائن الصغير اللطيف. وفي النهاية تخبرنا بحزن واستسلام عن موته بعد أن ابتل بالماء الذي سكبه أحدهم على الأزهار بدون أن يعرف أن الصوص كان مختبئاً تحتها.

وتذكر هاتان القصتان بعوالمهما ورسوماتهما بقصص الأطفال وخاصة الموجهة للفئات العمرية بين ٤-٦ سنوات، وأظن أنهما كانتا من هذه الناحية ناجحتين نجاحاً واضحاً.

وقصة «**العصفوران المحبوبان**» (١٩٩٩) للطفلة شيماء نادر جلال (٨ سنوات – رام الله) تشبه أجواء القصة السابقة، فهي أيضاً تتحدث عن عصفورين كانا في قفص ثم مات أحدهما ولم يلبث العصفور الآخر أن مات حزناً على رفيقه.

كما تشترك قصة «**ميكي الشاطر**» (٢٠٠٢) للطفلة خلود محمد سعيد زغير (٨ سنوات/ غزة) مع القصتين السابقتين في بطولة شخصيات من عالم الأطفال، فالبطل هنا هو ميكي، الشخصية الكرتونية الشهيرة، الذي يلعب في حديقة المنزل فيعثر على شيء غريب ويبادر إلى إخبار الشرطة عنه وتأتي وتشكره على ذلك.

وكذلك فإن قصة «**الكوب الضاحك**» (٢٠٠٢) للطفل محمود أمين الرياص (٩ سنوات/ رفح) تتحدث عن علاقة الطفل الصغير سارد القصّة بكوب مرسوم عليه وجه ضاحك يتلقاه هدية من عمه، فيستعيره منه أحد أصدقائه وينكسر منه، ويحزن صاحبه عليه، ويقرر عدم شراء أي كوب ضاحك حتى لا يحزن عليه.

أما قصّة «**حلم ليلى**» (٢٠٠٢) للطفلة أحلام حسن (١٢,٥ سنة/ رام الله) فتمتاز بعالمها السحري الجذاب، وبنائها السردي

المحكم واستخدامها تقنية الحلم باقتدار واضح. تتحدث القصة عن فتاة اسمها ليلى تعدو بسعادة بين شجرات التفاح وترغب في قطف تفاحة ولكنها كانت على غصن عال ولم تستطع استخدام السلم لأنه ثقيل، فتطلب العون من الفراشات والنمل، ولكنها تعتذر فتأتي العصافير وتحملها وتضعها فوق الشجرة فتأكل ما تشاء من التفاح اللذيذ قبل أن ينكسر الغصن وتسقط على الأرض في بركة ماء. تستفيق من نومها لتجد أنها قد سقطت عن سريرها وقد انسكب عليها كوب الماء، فتدرك أن كل ذلك كان حلماً.

وتشبه قصة «**القصر الجميل**» (٢٠٠٣) للطفلة ياسمين ماجد نصري (١٠ سنوات/ البيرة) القصةّ السابقة في أجوائها واستخدامها لتقنية الحلم السردية. تتحدث القصّة عن رحلة خيالية تقوم بها بصعودها إلى شجرة تفاح حيث تصل إلى قصر جميل على صهوة حصان طائر، وهناك تحرر حصاناً أسيراً قبل أن تستيقظ من نومها لتدرك أن كل ذلك كان حلماً.

وتصور قصة «**الصديقتان**» (٢٠٠٣) للطفلة إيمان محمد الخليلي (١١ سنة/ رام الله) بحيوية لافتة علاقة صداقة تجمع بين طفلتين وما حدث بينهما من سوء تفاهم عندما تلعب لارا بطائرة شقيق صديقتها الورقية بدون استئذان، فتعلق الطائرة في العمود وتتلف فتفترقان متخاصمتين، ولكن القصة تنتهي نهاية سعيدة بعودة العلاقة بينهما إلى قوتها السابقة بعد أن تستيقظ الساردة من كابوس مخيف لتجد لارا تعانقها.

أما قصة «**فرفوشة سرّ عجيب**» (٢٠٠٣) للطفلة ليلى محمد أمين الرياطي (١٠ سنوات/ مخيم الشابورة – رفح) فهي قصة جميلة جداً ذات خيال خلاّق وأجواء سعيدة وموضوع يناسب الأطفال من فئة الكاتبة العمرية فما دون. تتحدث القصة عن طفلة لها ألعاب كثيرة تعيش حياة هانئة سعيدة في أسرتها. ترى في منامها أن دميتها فرفوشة تعاتبها لأنهم لم يصنعوا لها فماً تتحدث به معها، فتطلب من أمها أن تصنع لدميتها فماً فتفعل الأم ذلك باسمة نزولاً عند رغبة ابنتها. ومنذ ذلك الوقت شرعت الدمية تتحدث مع صاحبتها، وصار لهما أسرارهما الخاصة المشتركة.

وتشترك قصّة «**شوشو**» (٢٠٠٥) للطفل باسل سامي عبد الهادي (١٥ سنة/ جنين) مع القصص التي تتخذ من المخلوقات الأليفة كالقطط والعصافير أبطالاً رئيسين أو مشاركين، فالبطلة هنا أيضاً قطّة اسمها شوشو تعيش عند الملك. في أحد الأيام تهرب شوشو إلى غابة جميلة، وهناك يختطفها دب، إلا أن الحيوانات تحررها من أسر الدب فتعود إلى قصر الملك. وكان يمكن للقصّة أن تنتهي هنا لكن الكاتب يواصل شارحاً رموزه بطريقة مباشرة، فيخبرنا أن شوشو هي فتاة فلسطينية تسكن بجوار جدار الفصل العنصري، أما القصر فهو البيت، وأما الدب فهو الإرهاب الإسرائيلي. وعلى الرغم من عدم انسجام الرموز تماماً مع عالم القصّة وأحداثها، إلاّ إن إلحاح الموضوع الوطني على وجدان الكاتب هو الذي دفعه إلى المزواجة بين عالم الطفولة البريء وواقع الاحتلال الثقيل في محاولة قصصية ذات بناء رمزي.

وكذلك فأن قصّة «**لا عيب في الصغر**» (٢٠٠٦) للطفلة هبة الله محمد الشاوي (١١ سنة/ رفح) تحيل بأسلوب مرموز إلى الواقع، فالقصّة تتحدث عن سمكة صغيرة تضطهدها أخواتها نظراً لصغر حجمها، غير أنها تتمكن في النهاية من العثور على الجوهرة السحرية والتغلّب على الأخطبوط الشرير وإنقاذ أخواتها وفك أسر والديها من سجن الأخطبوط الشرير في قاع البحر.

وتعود أجواء الطفولة البريئة في قصة «**رنا والعصفورة**» للطفلة رهادة ناهض (٨ سنوات/ غزة) التي تتحدث عن صداقة بين فتاة صغيرة اسمها رنا وعصفورة. والبطلة تماهي بين سلوك العصفورة مع صغارها ومعاملة أمها لها، ورعايتها لها، كل ذلك بأسلوب رشيق مفعم بأجواء الطفولة السعيدة .

أما قصة «**في يوم من الأيام**» (٢٠٠٧) لنهاوند موسى أبو عفيفة (١٥ سنة/ الخليل) فتصور من خلال سرد متماسك

متقن قلق طفل مراهق يعود في أحد الأيام مهموماً من المدرسة ويرفض تناول الطعام ويظلّ منزوياً في حجرته. وبعد إلحاح والده يخبر أسرته بأن طبيب العيون قد زار المدرسة وفحص الطلاب وطلب أن يراجعه في عيادته. وهو يظن بأن عليه أن يضع نظارة طبية وهذا ما لايطيقهُ ويرفضه بشدّة. يشجعه والده على تقبل الواقع، فيقرر زيارة الطبيب في عيادته، وهناك يفاجأ بأن الطبيب لا يريد منه سوى إيصال رسالة إلى عمه الذي هو صديق قديم للطبيب لم يره منذ مدة طويلة، يسّر الطفل سروراً بالغاً، ويخلص إلى أن عليه دائماً تحري الحقيقة وأن لا ينسج حول نفسه شرنقة من الأوهام.

وتمتاز قصة «**سمر تعشق البحر**» (٢٠٠٨) للطفلة أفنان رويدي (١٢ سنة/ القدس) بخيالها المجنّح الخلاّق وعالمها السعيد. وهي تتحدث عن طفلة اسمها سمر تحب البحر كثيراً. تذهب في أحد الأيام إلى شاطئ البحر وتتخيل أن كل شيء في البحر سوف يغدو ذهبياً إذا ما سقطت عليه أشعة الشمس. وشيئاً فشيئاً تغوص في عالمها المتخيل وتذهب في رحلة إلى أعماق البحر حيث تصف ما تراه هناك من عالم ملون متنوع مدهش بطريقة حيوية تنمّ عن اقتدار سردي لافت، وفي الأعماق تلتقي بعروس البحر التي تأخذها في جولة مدهشة حيث تنقذ سمكة من حوت أزرق، ومقابل ذلك تريد السمكة أن تحقق لها ما تشاء فتطلب بيتاً مليئاً بالكنوز، فيكون لها ذلك ولكن حينما تطلب أن يعيش معها أهلها فيه تخبرها السمكة باستحالة هذا الأمر. وفي قاع البحر تكتشف كهفاً مليئاً بالفتيات الحبيسات فتدرك أنهن مررن بتجربتها نفسها، وتقتنع أن لكل كائن حي حياته الخاصة وعليه أن يرضى بها، وهنا تصحو سمر على نسمة باردة تهب على وجهها إثر غياب الشمس ليكتشف القارئ أن هذه المرحلة المدهشة والأجواء الساحرة كانت حلماً. ولا تقل قصة «**سميرة والقمر**» (٢٠٠٨) للطفلة سماهر سمير المبيض (١٤ سنة /غزة) جمالاً وإدهاشاً في قدرتها التخيلية وتماسكها السردي عن القصّة السابقة، وهي تتحدث عن علاقة طفلة اسمها سميرة بالقمر، فهي تحبه وتنظر إليه دائماً «وتعتقد أنه يبادلها النظر أيضاً ويخصها بذلك وحدها فقط، فعندما تمشي تقوده على الشاطئ فتتبعهما النجوم. تخبرنا أن صداقتها مع القمر بدأت عندما كانت طفلة صغيرة على كتف أمها فكانت تنظر إلى القمر وتخاله ينظر إليها ويسير معها، وتحكي له حكايتها عن الشجرة التي صادقتها واعتنت بها لتكون لها وحدها، غير أن الشجرة كانت حزينة لأن الفتاة لم تسمح للعصافير بأن تبني أعشاشها على أغصانها أو للأطفال باللعب تحتها، وفي النهاية تموت الشجرة حزناً. وحينما سمع القمر هذه الحكاية تسيل دمعة على خده حاول إخفاءها عن سميرة، وكان يفكر أنه صديق الشجر والليل والبحر والأطفال وصديق كل الناس، وقد يموت هو أيضاً إذا منع عن الأطفال والليل والبحر، فتشعر سميرة أنها صارت أقوى لأنها تشارك الجميع في حب القمر وصداقته. ومن نافذة غرفتها كانت تنظر إلى القمر وتفكر أن أطفالا كثيرين ينظرون إليه في اللحظة ذاتها فتلتقي نظراتهم حوله. وفكرت بأولئك الأطفال الذين قد يكونون محرومين من القمر. إن هذه القصة مفعمة بالمشاعر والأجواء الوجدانية الرحبة. وكل ذلك في أسلوب جميل متدفق يجعلها أقرب إلى قصيدة غنائية.

أما قصة «**أنا والمتسوّل والغراب**» (٢٠٠٨) للطفلة شروق حسام محمود (١٤ سنة/ القدس) فتنم عن موهبة سردية لافتة وقدرات لغوية مميزة وتختلف عن بقية كتابات الأطفال في أسلوبها فهي مكتوبة على طريقة المقامة ولغتها المسجوعة وأسلوبها الفكه، برهنت فيها الكاتبة على مقدرة لغوية واضحة وخاصة قدرتها على كتابة سجع تلقائي مرح ينم عن ثروة لغوية واسعة وقدرة على التصرف في الكلام، مثلما يدل أيضا على صلة قوية بالتراث العربي القديم وخاصة مقامات الهمذاني والحريري. وهذه القصة أو المقامة تحكي عن مغامرات أشبه بمغامرة عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري بطلي الهمذاني عن الطمع والضرب في الآفاق في رحلة تأخذه إلى أحداث مشوّقة وأماكن متعددة، إلا أن السارد يصل في النهاية إلى قناعة بأن الحياة تغدو أكثر بهجة بتحصيل العلم ومكارم الأخلاق.

٣- الموضوعة الفلسطينية:

احتلت الموضوعة الفلسطينية المساحة الأكبر في كتابات الأطفال، موضوع هذه القراءة، ويمكن تتبع هذه الموضوعة من خلال ثلاثة محاور أساسية تمحورت حولها مقاربات كتابات الأطفال لقضيتهم الأساسية في تجلياتها المختلفة.

٣-١. النكبة واستمرار الذاكرة:

على الرغم من أن جميع هذه النصوص كتبها أطفال ولدوا بعد الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، بل بأن آباءهم أنفسهم لم يعيشوا نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، إلا أن فلسطين التاريخية وحياة القرية قبل النكبة كانت حاضرة حضوراً مباشراً في ستة نصوص على الأقل تراوحت بين قصة قصيرة نشرت ضمن مجموعة أو كتاب مستقل، إلى جانب حضورها في عدد آخر من النصوص على نحو غير مباشر باعتبار أن نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ هي التي أفرزت كل ما نجم عنها من شتات ومعاناة واحتلال وانتفاضات.. إلخ.

وقد كانت حكاية القرية أو المدينة التي طرد منها الأهل حية ومستمرة في الوجدان من خلال تواصل الأجيال الذي يمثله هنا الأجداد من طرف والأحفاد من الطرف الآخر، ويتمثل ذلك من خلال رغبة هذا الجيل اليافع في استعادة الحياة في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ باستخدام السردية الفلسطينية الكبرى وتجلياتها في حكايات الجدّات والأجداد.

فقصة «**حياتنا في الماضي**» (١٩٩٨) للطفلة ريم صالح كناعنة (١٢سنة/ مدرسة الفريندز للبنات /رام الله) تعيد سرد ما روته لها جدتها فاطمة كناعنة (٧٢ سنة) عن قريتهم عرابة البطوف في الجليل من حكايات عن طفولة الجدة وصباها في القرية، وحياة الأهالي الهانئة التي قوامها الزراعة والاعتناء بالحيوانات الأليفة وجلب الماء من النبع والجلوس في الديوان لاحتساء القهوة انتظاراً لمواسم الحصاد، وعن أساليب الاحتلال الإنجليزي في التنكيل بسكان القرية واقتحام بيوتهم وتدمير أغراضها ومؤونتها، ثم وقوع نكبة ١٩٤٨ ورفض الجد ترك القرية وصموده على أرضها، مما يشعر الطفلة التي تحمل رواية جدتها بالحنين إلى تلك الأيام والإعجاب بأولئك الذين صمدوا فوق أرضهم.

ويشير عنوان قصة «**أيام جدتي**» (١٩٩٨) للطفلة مريم عبد الرحيم دعيس (١٢ سنة/ شعفاط – القدس) بشكل مباشر إلى موضوع الكتاب السابق، وهذا الكتاب مهدى إلى الجدة (٧٢ عاماً) عرفاناً لاستعادتها تلك الأيام الجميلة.

القصة استرجاع لذكريات ترويها الجدة لحفيدتها التي تعيد كتابتها عن الحياة في القرية في فلسطين التي احتلت عام ١٩٤٨، إذ تروي الجدة عن طفولتها وصباها وكيف كانت تخيط أثوابها بنفسها، وتصف البيت الذي كان مبنياً من الطين والحجارة، وتتحدث عن الأغنام التي كانت ترعى حوله والدجاج الذي كان يلتقط الحب والأعشاب في فنائه، وكيف كانت تساعد زوجها في تربية الأغنام وحلبها، وجلب الماء من البئر، وتصف أعمال الرجال في الحقل والبيدر، وحفلات العرس وثياب العروس والوليمة التي تعد بمناسبة العرس ويشارك فيها جميع سكان القرية.. إلخ. إنها استعادة واعية مقصودة ورغبة الجيل الجديد في التمسك بالسردية الفلسطينية واستعادة الفردوس المفقود ولو من خلال المخيلة والسرد، مما يشير إلى وعي الأطفال وتمسكهم بهوية إنسانية وطنية ذات ملامح مميزة.

أما قصة «**كفاح صيّاد**» (٢٠٠٢) للطفلة ديمة زهير اللبابيدي (١٢ سنة /خانيونس) فتستعيد الحياة في يافا قبل النكبة من خلال مأساة صيّاد يقتل الجنود ابنه ويتركونه مجندلاً على شاطئ البحر لأنه جادلهم في حقّه في وطنه. وعلى الرغم من أن أحداث القصة تقع قبل عام ١٩٤٨ إلا أن القارئ يلمس اختلاطاً في جوّ القصة وكأن الساردة تسقط التاريخ المعاصر الذي عايشته على أحداث الماضي، مما يشير إلى وعي الأطفال العفوي بأن معاناتهم الحالية ما هي إلا استمرار لمأساة سابقة مستمرة .

وأما قصة «**عائدة إليك يا بيت نبالا**» (٢٠٠٢) التي كتبتها الطفلة مرام إسماعيل سليمان زيد (١٤ سنة/ البيرة) فتعيد سردّية خروج أهالي قرية بيت نبالا بعد الهجوم على قريتهم عام ١٩٤٨، ورحلتهم من قرية مجاورة إلى أخرى من القرى التي لم تسقط بعد، محتفظين بمفاتيح بيوتهم يحدوهم أمل لا يموت بالعودة.

وتنفرد قصة «**مزرعة أبي وحدي**» (٢٠٠٣) للطفلة نعمة فرح أبو شمّالة (١١ سنة/ البريج) بأنها مكتوبة بأسلوب يمثل اغتصاب فلسطين على نحو رمزي غير مباشر، فهي تحكي عن أب يرث مزرعة عن أبيه الذي ورثها بدوره عن الجد الذي كان قد ورثها أيضاًعن أبيه.. إلخ، الأب يعمل في مزرعته بجد ونشاط ولكن الأمير الذي يقيم في قصر مجاور يغتصب المزرعة ليضمها إلى أرضه، ولم يكن بمقدور الأب التصدي للأمير فهو ضعيف لا حيلة له موقناً أن أولاده عندما يكبرون غداً سوف يستعيدونها، وكان يعلمهم ذلك كل يوم، كنّا نكبر ونكبر وننظر إلى أرضنا صباحاً ومساء ونقول: سوف نستعيدها، سوف تعود لنا.

٣- ٢. العودة من الشتات:

٣-٢-١. عودة الطيور المهاجرة:

كانت حالة الشتات والتشّرد في المنافي التي تنقلّت بينها العائلات الفلسطينية موضوعاً لعدد من النصوص والقصص وكتب السيرة التي صوّرت المعاناة الناجمة عن ضياع الوطن والنبذ الذي عانى منه الفلسطيني في بعض العواصم العربية والمنافي المختلفة، وخاصة إذا كان ربّ العائلة أو أحد أفرادها منخرطاً في العمل الوطني، بل حتى لمجرّد كون الفلسطيني غريباً يبحث عن عمل أو مكان يقيم فيه. وقد عانى الأطفال من هذا الواقع على نحو استثنائي، فقد كانوا مضطرين للانتقال من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى أخرى بما يعني ذلك من أزمات نفسية واجتماعية يمر بها الطفل حين يجد نفسه فجأة في مجتمع جديد وبين ناس مختلفين ولو في لهجتهم التي لم يعتد سماعها.

تروي الطفلة ياسمين إبراهيم عليان (١٤ سنة / بيت صفافا) في قصتها «**طفولتي**» (١٩٩٨) انتقال العائلة من الكويت حيث ولدت وعاشت إلى الأردن ثم إلى الضفة الغربية واستقرارها أخيراً في بيت العائلة القديم في بيت صفافا، وتصوّر في أثناء ذلك معاناتها في بداية الأمر من اختلاف البيئة وأزمة التكيف وبعض ما حدث لها في القرية والحقول قبل أن تبدأ شيئاً فشيئاً بالتكيّف بل الشعور بالسعادة كونها أصبحت تعيش في وطنها، وشعورها بالامتنان تجاه مدرستها وأساتذتها.

أما قصة «**الحلم أصبح حقيقة**» (١٩٩٨) التي كتبتها الطفلة أمينة خلف (١٢ سنة/ برقين – جنين) فتدل كما يشير عنوانها إلى تحقق حلم الساردة في العودة أخيراً إلى وطنها والاستقرار في قريتها بعد رحلة معاناة وشتات مرت بها مع عائلتها، هي رحلة كل أسرة فلسطينية اختبرت معاناة الانتقال من عاصمة إلى أخرى ومن بلد إلى بلد، وذل الوقوف على الحدود، وملاحقة السلطات، وصدمات الانتقال من بيئة إلى أخرى.. إلخ. وتتفاقم هذه المعاناة في بعض الدول العربية، خاصة إذا كان ربّ الأسرة منخرطاً في العمل الوطني السياسي مثلما كان والد الساردة هنا. كانت الأسرة تقيم في الأردن، وكانت الأم تعود مع أطفالها إلى الضفة في كل مرة تنجب فيها مولوداً جديداً لكي تضمن حقه في المواطنة بتسجيله في هويتها، وقد أتاحت هذه الزيارات للساردة فرصة تعميق ارتباطها بالقرية والوطن، وخاصة من خلال حكايات جدّها، إذ كان يحكي لها قصة كل قطعة أرض يمتلكونها، وسيرة كل شجرة أو حقل أو كرم زيتون. في الأردن يتعرض الأب للاعتقال على يد رجال المخابرات، وبعد مدّة يسمح للأسرة بمقابلته في معتقله في زيارة تصفها الساردة بدقة وحيوية، وخاصة لحظات الترقب والانتظار، ورفض أفراد الأسرة تناول الشاي

الذي طلبه الضابط لهم، وإصرار الأب وثباته على موقفه مسلّما أمر أسرته ورزقها إلى الله تعالى. يطلب الأب من زوجته أن تنتقل بالأسرة إلى أبو ظبي عند شقيق الأم، ومن هناك يطلب منهم الذهاب إلى العراق، وهناك تعرف الأسرة أن الأب يعمل مع القائد (أبو جهاد) الأمر الذي يصيبها بقلق شديد عندما سمعت عن اغتيال هذا القائد واثنين من مرافقيه حتى يأتيهم خبر من الأب أن يلتحقوا به في تونس. وتصور الساردة ما عانت الأسرة جراء هذا الترحال المستمر من صعوبة في التكيّف وشعور بالغربة المزمنة. تعود الأم إلى الضفة من أجل إنجاب طفل جديد. وعلى الجسر تعطي أولادها حبوباً منومة كي لا ينزلقوا في إجاباتهم على أسئلة المخابرات الإسرائيلية، ولكنهم يصلون بسلام إلى القرية في وقت كانت الانتفاضة الأولى في أوجها فتروي الساردة مشاهداتها عن الصدامات بين الملثمين وجنود الاحتلال.. وأخيراً تعود الأسرة للاستقرار نهائياً في الوطن بعد اتفاقية أوسلو، وهكذا يتحقق الحلم ويصبح حقيقة، ومن هنا جاء عنوان هذه القصة. أما إهداء الكتاب إلى كل طفل عربي تاه وشرّد بسبب الظلم والقهر.. فيدل دلالة عميقة على معنى الوطن والمعاناة والعذاب الناجمين عن فقدانه.

ولا توازي هذه القصة في غزارة تفاصيلها عن المعاناة التي تمر بها العائلات الفلسطينية في بعض البلاد العربية سوى القصة التي تحمل عنوان «**عودة الطيور المهاجرة**» (١٩٩٩) للطفل سليمان أحمد سليمان (١٣ سنة/ أبو فلاح). وهي سيرة ذاتية يندمج فيها السارد والكاتب الصريح في صوت واحد يروي سيرته أو رحلته هذه في أربعة فصول:

١- مولدي.
٢- الحياة في ليبيا.
٣- رحلة العودة/ رحلة المعاناة:
- المحطة الأولى
- المحطة الثانية
- المحطة الثالثة

وتكفي هذه العناوين وحدها للدلالة على فحوى الكتاب ولكنها لا تغني عن قراءة التفاصيل في صدقها وبراءتها وقدرتها على الربط بين الخاص والعام بحيوية وصدق يتضح من خلالهما وعي أطفال بما يجري حولهم وعيا يكاد يكون تفصيلياً وشاملاً لا يميّزه شيء عن وعي الكبار سوى نبرة الأمل والبراءة الغالبة على لغة الأطفال في أثناء تعبيرهم عن ذلك.

يروي الطفل سيرته منذ لحظة ولادته في مستشفى المقاصد في القدس، ولا يفوته هنا التذكير بأهمية القدس وواجب المحافظة عليها، ثم انتقال الأسرة إلى العقبة في الأردن حيث كان الأب يعمل مدرساً. تعيش الأسرة هناك سنة كاملة قبل أن يفصل الأب من عمله لأسباب سياسية فيعود الطفل ذو العام الواحد مع أمه الحامل إلى «فلسطين بلد أهلي وأجدادي، حيث كانت الانتفاضة المجيدة (الأولى) في أقوى مراحلها «(ص٧)، ويبقى سنة كاملة قبل أن يرسل إليهم الوالد تذاكر سفر إلى البلد الجديد الذي يعمل فيه وهو ليبيا، فتسافر الأسرة التي كانت قد ازدادت فرداً واحداً في هذه الأثناء إلى عمان ثم إلى ليبيا حيث يكون الأب في استقبالهما ويأخذهما إلى مدينة الزاوية مكان عمله وإقامته. وهنا يأخذ السارد دور الرحالة فيصف ليبيا ومناخها وأسماء الشهور فيها، ومدينة الزاوية وأسواقها العامرة وتأثره باللهجة الليبية مما كان يدفع أقربائه للضحك من لهجته عندما كانوا يعودون في العطلة الصيفية.

غير أن الجزء الأهم من هذه السيرة هو المخصص للحديث عن فصل الأب من العمل وطرد العائلة من ليبيا ضمن مئات العائلات الفلسطينية الأخرى:

« وفي آخر سنة قاموا بإيقاف أبي عن التدريس، ولم يجددوا العقد لأنه فلسطيني يجب أن يرجع إلى فلسطين وذلك كما كانوا يقولون لأنه أصبح لنا دولة ويجب أن نرجع إليها».

لقد كرهت القذافي كثيراً كثيراً وكنت أصلاً لا أحبه، فهو شكله غريب وصار يقول عن الفلسطينيين إنهم أجانب «جايين يأخذوا فلوس الليبيين» (ص ص ١٥-١٦).

ولعل هذا القسم أبلغ أقسام السيرة في قوة دلالته على معاناة الجاليات الفلسطينية في البلاد العربية، ودفعها مباشرة ثمن تطورات سياسية خارجة على إرادتها، إذ يصل السارد هنا إلى تصوير اضطرار الأسرة إلى مغادرة ليبيا فجأة، فبعد أن يبيعوا كل ما يمتلكون في مدينة الزاوية يشتري الأب تذاكر سفره على متن باخرة ستبحر إلى مالطا من أجل الانتقال من هناك جوّا إلى القاهرة ومنها إلى عمان فالضفة، ولكن الباخرة تتأخر أياماً وتضطر الأسرة للانتظار في حالة من القلق والبرد والاضطراب قبل أن تنتهي رحلة المعاناة أخيراً بوصولهم إلى الأردن ثم فلسطين حيث استقروا في قريتهم التي منحتهم الشعور بالراحة والطمأنينة.

وتشترك «**رحلة أمل**» (٢٠٠٢) للطفلة أمل فتحي الميدنة (١٢سنة/غزة) في تصويرها معاناة الجالية الفلسطينية التي طردت من ليبيا عام ١٩٩٥ حجة أنه قد أصبح لهم وطن يمكنهم العودة إليه. وعلى الرغم من قصر حجم القصة إلا أنها نجحت في نقل المعاناة، التي عاشها الكبار والصغار على الحدود بين ليبيا ومصر وانتظارهم الطويل في مناخ قاس وظروف صعبة قبل أن يحشروا في حافلات رافقتها الشرطة التي عاملتهم بتوجس وفظاظة من مدينة إلى مدينة في رحلة أطلق عليها الكبار رحلة المعاناة ولكن الساردة أطلقت عليها «رحلة أمل» (لاحظ التورية في إحالة العنوان إلى اسم الكاتبة) لأنها أوصلتها أخيراً إلى مدينتها الحبيبة غزة التي تعلمت فيها القراءة والكتابة، وأنقذتها وذويها من اضطهاد الآخرين وذل الوقوف على حدودهم. وعلى الرغم من أن الطفلة روت هنا قصتها الشخصية إلا حكايتها هذه هي جزء من السردية الفلسطينية، فالسرد جاء بضمير الجماعة في إدراك عفوي مبكر بأنها جزء من جماعة ذات مصير واحد.

وتصوّر قصّة «**الطفولة الضائعة**» (٢٠٠٢) للطفل كمال باكير (١٤سنة/ رفح) حالة الغربة التي عاشها هذا الطفل في غزة بعد مجيء أسرته إليها بناء على اتفاق أوسلو، وشعوره بأنه مختلف عن بقية الأطفال من حوله، فهو يراقب باستغراب واستنكار مسيرات الأطفال الذين يجوبون الشوارع حاملين نعشاً رمزياً وهم يهللون ويكبرون، ويتساءل لماذا يفعلون ذلك ولا يعيشون طفولتهم كما تفرض أعمارهم، وينظر من شباك غرفته المليئة بالدمى والألعاب التي جلبها معه من تونس التي يحن إلى الرجوع إليها على الرغم من إحساسه بواجب البقاء في الوطن، ويتفاقم الصراع في داخله بين شعوره بالانفصال عن واقع شعبه ومحيطه وإحساسه بضرورة مشاركة الآخرين في همومهم الجماعية، ولكنه شيئاً فشيئاً أخذ يدرك أنه جزء من هذا الواقع، فيندفع إلى الشارع ليشارك الأطفال في مقاومتهم للاحتلال في خضم الانتفاضة الثانية.

٣-٣. الانتفاضة الثانية: بطولة الأطفال والبيوت والأشجار

موضوعة الانتفاضة الثانية وأجواؤها، وما نجم عنها من قتل الأهل والأخوة والأصدقاء، وتقطيع أوصال الوطن، وتجريف الحقول واقتلاع الأشجار وهدم البيوت، وحالة القلق وفقدان الشعور بالأمن التي عانى منها الأطفال انعكست في كتاباتهم، كل ذلك يكاد يحتل القسم الأكبر من كتابات الأطفال، وخاصة تلك المنشورة بين ٢٠٠٢- ٢٠٠٦، إذ احتلت هذه الموضوعة ٢٣ قصة منفردة. وهذا يعني أن الأطفال يستمدون موضوعاتهم من الواقع الذي يعيشونه مباشرة، بل إن كثيراً من هذه

النصوص كانت أشبه بقصة إخبارية أو تقرير حيّ عن مشاهدة واقعية، وليس مستبعدا أن يكون أغلبها تصويراً لتجارب كتابها أنفسهم، وعلى الرغم من تنوع وجهات النظر نحو الواقع، إلا أن التشابه في تصوير المعاناة، وخاصة وقع الفقدان الفاجع للأهل والأصدقاء والجيران، وهدم البيت بما يمثله من شعور بالأمن والطمأنينة والحماية ضد تهديدات العالم الخارجي هو القاسم المشترك الأعظم بينها جميعا.

٣-٣-١: الطفل شاهداً وشهيداً:

تتحدث قصة «**حياتي والرصاصة**» (٢٠٠٢) للطفلة كفاح محمد الأعرج (١٤سنة/ خانيونس) عن تجربة خاصة تعرضت لها ساردة القصة، وهي طفلة كانت تحلم بحياة هانئة سعيدة ولكن الاحتلال يفسد كل شيء في حياتها، ففي يوم من أيام الانتفاضة الثانية كان كل شيء هادئاً إلا من طائرة تحوم في الجو حين تطلب منها والدتها إحضار الغسيل عن سطح البيت، وفي أثناء جمعها للغسيل تشعر بشيء يخترق ظهرها، تنقل إلى المستشفى وهناك تعرف أنها أصيبت برصاصة، وتحوّل إلى العلاج في بلد عربي حيث يعاملونها بلطف غير أنهم يعجزون عن إخراج الرصاصة من جسدها، فتعود إلى وطنها وهي لا تتمنى شيئاً سوى أن يحبها الجميع ويزول الاحتلال وتنسى رصاصته اللعينة.

وفي قصة «**مذكرات فتاة فلسطينية**» (٢٠٠٢) للطفلة لبنى حمادة طلح (١٣سنة/ بير زيت)، المكتوبة على شكل يوميات، توثيق حيّ لمعاناة عائلة فلسطينية تضطر لترك بيتها في بيرزيت نتيجة مضايقة مستوطني عطيروت المجاورة لبيتهم، والانتقال للسكن مؤقتاً في رام الله. والقصّة مقسمة إلى ثلاثة عناوين توثق بشكل بريء لانعكاس الانتفاضة على حياة الأطفال خاصة، في الوقت الذي تصور فيه ارتباطهم بالمكان الذي نشأوا فيه، وحبهم لأرضهم وحقولهم.

وإلحاح جو الانتفاضة الثانية على عالم الأطفال جعل الطفلة هالة بسام المناوي (١٢سنة/ غزة) تختار عنوان «**انتفاضة الأقصى**» (٢٠٠٢) لنصها الذي يصوّر أجواء الهلع والاضطراب والقلق التي يعيشها الأطفال، سواء ما يحدث للأسرة مباشرة، أو ما يقع للجيران والأقارب والآخرين عموما، فالأطفال يفزعون من نومهم على وقع القصف وهدم البيوت والمداهمات الليلية، والسرد يبدأ هكذا «كنت نائمة ..».

وقد يكون عنوان «**كل شيء يذهب بإغماضة عين**» (٢٠٠٢) الذي اختارته الطفلة ريم حسن (١٦سنة / خانيونس) لنصها تكثيفاً دلالياً عن واقع فاجع، فالأطفال هنا يحلمون بالألعاب والطعام والبيت الجميل، ولكنهم يستيقظون من نومهم على صوت قنبلة تهدم كل شيء. لقد كانت مائدة الطعام التي رآها الأطفال في نومهم حلماً أما القنبلة فحقيقية. يشعرون ببرد شديد في الخيمة المصنوعة من مزق القماش التي انتقلوا للعيش فيها بعد هدم منزلهم، ولكنهم ينامون ويشعرون بدفء شديد. وقد كان هذا الدفء حقيقيا هذه المرة، فقد احترقت خيمتهم في أثناء نومهم وخنق الدخان أنفاسهم فلم يستطيعوا رفع أصواتهم لطلب النجدة من العالم الذي خذل نداءهم واستغاثتهم وهم أحياء.

ولا تقل قصة «**طفولة على الحواجز**» (٢٠٠٢) للطفلة آلاء نزار حسن (١٣ سنة / خانيونس) نجاحاً في شكلها ومضمونها وقدرتها على نقل واقعها المفجع عن القصة السابقة. تتحدث القصة عن طفل اسمه أحمد يذهب مع صديقه للعمل في أحد الحواجز التي تكاثرت إبان الانتفاضة الثانية. وكان العمل الذي يمارسانه أكثر غرابة من

أن يخطر في بال أي كان، ولا يمكن أن يحدث إلا في فلسطين وواقعها الكابوسي تحت الاحتلال، فلكي يتمكن سائقو السيارات من الانتقال بين الحواجز من جانب إلى آخر كان عليهم أن يحملوا معهم راكباً آخر على الأقل كي لا يثيروا ريبة الجنود فيسمحوا لهم بالمرور. وهكذا يعمل أحمد في هذا العمل السهل والانتقال مع السائقين من جانب إلى آخر مقابل شاقل واحد في كل رحلة. ولكن الجنود يخرقون هذه القاعدة الضمنيّة ويطلقون النار على الشاحنة التي كان أحمد يجلس بجوار سائقها، فيصاب السائق وتتراخى يداه عن المقود، فيخاف أحمد ويقفز من السيارة إلا أنها تنقلب عليه، فيموت «طفل الشيكل» ويده تقبض على خمسة شواقل قبل أن يكمل حلمه وتصبح عشريناً. والكاتبة تصرّ على وضع عنوان جانبي لها هو «قصة حقيقية» لكي تطرد من ذهن القارئ أي توهم بأنها قد تكون – لغرابتها- مجرد ابتداع خيال خلاق.

وتصوّر قصة "**الصوت الراحل**» (٢٠٠٣) للطفلة مها عقل (١٣ سنة/ مخيم البريج) بطريقتها البسيطة المؤثرة ومن زاوية نظر طفلة صغيرة اسمها هالة واقعا فاجعاً، فهالة تفقد شقيقها الذي سقط شهيداً فتنادي عليه ليسمعها ويرجع إليها، ولكنه لا يجيب نداءها فتواصل النداء لتكتشف في النهاية أنها فقدت صوتها «فترقد إلى جانب أخيها بلا صوت بلا أمل بلا أخ ..!». إن فقدان صوت الطفلة في هذه القصّة أشبه بصرخة استغاثة خرساء في عالم تتراكم فيه المأساة بشكل مركب، والطفلة هنا تعلن عن وجودها وتجتج على تهشيمها وإهمالها، ففقدان الأخ الصغير قد يكون أبلغ وقعا على وجدان شقيقته المقاربة له في العمر، ولكن غالباً ما يتم تجاهلها وإهمالها في خضم اهتمام الكبار من أهل وجيران وأصدقاء بمواساة الأم والأب وإغفال الصغار وكأنهم لا مشاعر لهم ولا وجود ولا صوت.

وفي قصص أخرى نقرأ محاولات مباشرة لتوثيق بعض أحداث الانتفاضة الثانية، مثل توثيق قصة مقتل الطفلة إيمان محمد حجو في النص الذي كتبته سمر يوسف حمدان (١٢٣ سنة/ خانيونس) بعنوان « **حياة إيمان حجو**» (٢٠٠٣).

أما قصة «**وعادت الشمس تشرق**» (٢٠٠٣) للطفلة حليمة أبو شمالة (١٣ سنة/ البريج) فتصور ما يعانيه الأطفال من الرعب والهلع الناجمين عن القصف الليلي المتكرر وذلك من خلال ما حدث للطفل أحمد الذي تلقى مساعدة نفسية ساعدته على العودة إلى حالته الطبيعية فيتفوق في دراسته، ويدرك واقعه بطريقة أكثر وضوحاً، وتعود الشمس لتشرق في داخله من جديد.

بل إن كابوس الاحتلال ومنع التجول والحواجز والجنود تطارد الأطفال حتى في نومهم وأحلامهم كما في قصة «**أحلام مدرسية**» (٢٠٠٣) للطفل جهاد شاهر عفونة (١٣ سنة/ المكان غير محدد)، فهو يرى في منامه أنه يذهب إلى المدرسة وحيدا لأن المدينة خاضعة لمنع التجول، ويخفق في إقناع أي من أصدقائه في مرافقته إلى المدرسة، ولكنه يصر على الذهاب وحده لأن اليوم كان موعد إلقاء خطابه المدرسي الصباحي، إلا أن الجنود يوقفونه في الطريق، وهنا يستيقظ على صوت أمه وهي توقظه لكي يستعد للذهاب إلى المدرسة، فيذهب ويلقي خطابه ويشعر بسعادة غامرة.

أما قصة «**اليأس والأمل في الحياة**» (٢٠٠٥) للطفلة دعاء اللوح (١٢ سنة/ دير البلح)، فعلى الرغم من بساطتها الشديدة إلا أنها تكاد تكون من أكثر قصص الانتفاضة تأثيراً، وهي تحكي ببراءة جارحة عن صداقة متينة تجمع بين طفلين هما أحمد وخالد يعيشان في خانيونس ويقضيان الوقت معا في الحديث واللعب. تنقلب حياة أحمد بعد استشهاد والده فيضطر لترك المدرسة ويحترف بيع الصحف في الشوارع ليعيل أسرته، غير أن هذا العمل يسبب له الإرهاق والقنوط. وفي يوم من الأيام جلس على الرصيف مرهقاً من بيع الصحف في الشوارع فوقع بصره على خبر

رحلة إلى القمر، فيقترح على صديقه خالد أن يذهبا في هذه الرحلة إلى القمر ليبتعدا عن هذا الواقع المتعب ويعيشا بسعادة هناك، فتعجب الفكرة خالد ويقرران الذهاب معاً في صباح الغد، يجهز كل منهما حقيبته وينسلان من فراشهما مبكرين ويغادران في رحلتهما إلى القمر ويركبان السيارة إلى معبر بيت حانون، ولكنهما هناك يفاجآن بأنهما لن يستطيعا الذهاب إلى القمر لأن معبر بيت حانون كان مغلقاً.

إن الصداقة بين الأطفال التي تنتهي نهاية فاجعة بمقتل أحدهما في أحداث الانتفاضة الثانية، كانت موضوعاً لعدد من القصص التي لا تعدو كونها توثيقاً لتجارب واقعية صادمة حفرت عميقاً في روح الأطفال، و لا سيما أولئك الذين فقدوا أعزاءهم وأصدقاءهم ورفاق لعبهم وزملاء دراستهم، وخاصة عندما كانوا يذهبون في الصباح التالي إلى المدرسة ليجدوا أن أحد المقاعد بات شاغراً بعد مقتل الطفل الذي كان يجلس عليه.

ومن هذه القصص على سبيل المثال قصة «**ألم الفراق**» (٢٠٠٥) للطفل خليل فايز أبو هاشم (١٤ سنة/ رفح مخيم يبنا) التي يروي فيها السارد قصة مقتل صديقه محمود أثناء مشاركتهم في مسيرة أطفال لفك الحصار عن منطقة تل السلطان، وكيف تغيّرت نظرته للعالم بعد مقتل صديقه، فيكتب هذه القصة لتكون شاهداً على جرائم الاحتلال.

وكذلك فإن قصّة «**كل شيء مستقر**» (٢٠٠٥) للطفلة أمل محمود البردويل (١٥ سنة/ غزة) فتصّور مأساة أسرة كانت تعيش حياة هانئة في قرية هادئة لا يعكر صفوها سوى لكنة الجندي المضحكة وهو يعلن في مكبّر الصوت عن منع التجوّل، إلا أن الأسرة تكون مضطرة للخروج من البيت لنقل طفلها المريض إلى الطبيب، تخرج الأم أولاً ويتبعها الأب فتجندلهما رصاصات القناصّة، تشاهد ساردة القصة أفراد عائلتها يتساقطون على باب المنزل بينما يتحرك القناص على سطح مقابل، ثم تسمع صوت الجندي في اللاسلكي يقول: «الأوضاع مستقرة هنا، كل شيء هادئ على هذه الجبهة، اطمئن يا سيدي». مما يذكر بعنوان الرواية الشهيرة «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية» للكاتب الألماني إريش ماريا ريمارك.

كما أن قصّة «**الوداع يا علي**» (٢٠٠٩) للطفلة لما طلال عوض (١١ سنة/ غزة) تدور أيضاً حول حادثة طفل صغير وأمه، فعلي بطل القصّة يقضي الليل في الاستعداد للامتحان، وفي الصباح توقظه أمه للذهاب إلى المدرسة فيشعر برهبة الامتحان ولكنه يحس بثقة في نفسه نظراً لاستعداده الجيد. تودعه أمه حتى الباب وفي الطريق يسمع صوت انفجارات تهز الأرض فيقفل عائداً ليجد أن البيت قد أصبح كومة من الردم وأمه مجندلة تحت الركام، فينكب على جسدها باكياً ولكن فجأة يتوقف كل شيء، فقد أصابته رصاصة في المقتل «وتفوح في المكان رائحة الأزهار لتدل على وحشية الاحتلال».

٣-٣-٢ البيوت:

أما هدم البيوت، وخاصة في قطاع غزة، وبشكل أخص في منطقة رفح، فقد كان موضوعاً لعدد لافت من النصوص التي كتبها الأطفال.

ففي قصة «**لن أرحل**» (٢٠٠٣) للطفل محمود محمد الجزار (١٤سنة/ رفح) هناك ربط واضح بين هدم بيت السارد وبيوت الجيران في منطقة رفح الحدودية وهدم بيت الجد في قريتهم التي احتلت عام ١٩٤٨. وبعد أن هدمت الجرافات البيت يشعر السارد بحزن شديد ولكنه بعد أن يسمع صرخة أبيه: «لن أرحل» تتملكه هزة شديدة وإصرار على البقاء والصمود.

وتكاد النصوص التي تصوّر هدم البيوت تكون نمطية في توثيقها لهذه الحوادث المفجعة ووقعها المأساوي على أصحابها، ولاسيما الأطفال الذين يشعرون فجأة بإحساس طاغ من فقدان الأمان الذي يشكله البيت بشكل بديهي للإنسان، إضافة إلى ما في هذه النصوص من بعد توثيقي يكاد يكون تسجيلياً إلى حدّ كبير، وخاصة عند الحديث عن إمهال الأسرة ساعة أو ساعتين أو أقل لإخلاء البيت الذي استغرق بناؤه سنوات وجهود وتضحيات كبيرة ليهدم في لمح البصر، والانتقال بعد ذلك للعيش في خيمة أو عند أقارب آخرين. وكل هذا يشكل صدمة غائرة في وجدان الطفل الذي عاش مثل هذه التجربة الأليمة مباشرة، أو من خلال أقربائه وأصدقائه وجيرانه. وهذا يتكرر في عدد من القصص كما على سبيل المثال قصّة «**أحلامي تتهدم**» (٢٠٠٥) للطفلة وفاء حسن أبو رحمة (١٣ سنة/غزة) وقصة «**قصتي في يومين وليلة**» (٢٠٠٥) للطفلة رانيا صالح الشاعر (١٣ سنة/رفح).

ومن القصص التي تعبر عن هذا الموضوع ببراءة وحيوية قصة «**صديقي مصطفى**» (٢٠٠٢) التي كتبها الطفل حازم بشير عفانة (١٤ سنة/رفح)، فهي تتحدث عن صداقة متينة تربط بين طفلين هما السارد وصديقه مصطفى اللذان كانا يقضيان يومياً أوقاتاً جميلة معا على شاطئ البحر، وفي المساء يعودان سعيدين كل إلى بيته. يتغيّر إيقاع الحياة الهانئ هذا فجأة إثر زيارة شارون للأقصى واندلاع الانتفاضة الثانية، ويصيب هذا التغيير أكثر ما يصيب مصطفى كونه يعيش في منطقة تكثر فيها الصدامات . في أحد الأيام يتغيّب مصطفى عن المدرسة فيذهب السارد للسؤال عنه ليجده حزيناً مطرقاً وقد جلس إلى جانب ركام بيتهم الذي هدمه الاحتلال بينما كان إخوته يبحثون بين الردم عن كتبهم وأغراضهم. يربط السارد هنا أيضاً بين ما يشاهده الآن وبين ما كان يسمعه من أبيه عن هدم بيوتهم وطردهم من قراهم. وهنا يلمس القارئ كيف يجثم الواقع بثقله على عالم الطفولة ويفسدها، في حين يدرك السارد إدراكاً عفوياً أن المصير العام يتحكم بالمصير الفردي، ولا انفكاك بينهما.

٣-٣-٣ بطولة الأشجار:

من بين القصص التي كتبها الأطفال، وخاصة في سنوات الانتفاضة الثانية، خمس قصص تدور مباشرة حول الأشجار، سواء من زاوية كون الشجرة ضحية للاحتلال أيضاً، مثلها في ذلك مثل البشر والبيوت، أو من زاوية أنسنة الشجرة وتجلية العلاقة التي تربط الإنسان بها وامتدادها في الأجيال بين الأجداد والأحفاد.

ويلفت النظر في هذا السياق تداخل القيم الوطنية مع القيم البيئية والوعي البيئي المتمثل في ضرورة الحفاظ على الطبيعة ممثلة بالأشجار في المقام الأول.

في قصة «**أنين شجرة الزيتون**» (٢٠٠٣) لمجموعة من طالبات الصف السادس/ نابلس، يرتبط الوعي البيئي بقيم المقاومة والصمود في الوقت الذي تتعرض فيه البيئة في فلسطين وخاصة أشجار الزيتون إلى حرب منهجية يشنها الاحتلال عليها بجرافاته ومستوطنيه. تتحدث القصة عن صديقتين تخرجان للنزهة بعد فك الحصار الذي رافق عملية «السور الواقي» فتخال إحدى الصديقتين أنها تسمع شجرة زيتون تبكي اقتلاع مئات من أخواتها شجرات الزيتون على أيدي جنود الاحتلال، فتقرر الفتاتان (أو الصديقتان) بذل ما في وسعهن لحماية البيئة والدفاع عنها.

أما في قصة «**مذكرات شجرة**» (٢٠٠٣) للطفلة شيماء سيّد الحلولي (١٤ سنة/ غزة) تكون الشجرة هي حاملة الذاكرة الفلسطينية، فشجرة الجميّز تحكي للأطفال عن ذكرياتها، وعن الأبطال الذين استظلوا بظلّها، ولكن الاحتلال يقتلعها لأنها ترفض الكشف عن مكان المجاهدين، واختيار شجرة جميز بالذات لتمثل الذاكرة الفلسطينية المتصلة بما تمثل من سردية خاصة كان اختياراً له دلالته القوية؛ فهي شجرة تزدهر في الساحل الفلسطيني وتعمر طويلاً، كما أنها شجرة باسقة وارفة الظلال، وذات دلالة فلسطينية خاصة مثلها في ذلك مثل

التين والزيتون والسنديان والصبار والبرتقال. ومن ناحية أخرى تذكر هذه القصّة بقصة «الأخوات الحزينات» للأديب الفلسطيني نجاتي صدقي (١٩٠٥-١٩٧٩) فقصته أيضاً تحكي عن خمس شجرات جميّز وارفات كنّ في يافا ثم أصبحن في تل أبيب بعد أن اتسعت هذه المدينة والتهمت يافا، ينام السارد تحت ظلالها فيرى في منامه أن الشجرات قد أصبحن خمس أخوات حزينات متشحات بالسواد مع اقتراب سحب النكبة في الأفق، تروي كل منها قصة تمثل جانبا من الذاكرة التاريخية الفلسطينية الخاصة. فالجميّز هنا أيضاً يمثل الصلابة والصمود واستمرار الذاكرة.

وأما قصة «**حكايتي مع شجرة الزيتون**» (٢٠٠٣) للطفلة مها غراب (١٠سنوات/ النصيرات) فتتحدث أيضاً عن علاقة تربط طفلة صغيرة بشجرة زيتون معمرة على طريق المدرسة. تعامل الطفلة الشجرة كأنها صديقتها. ولكن في أحد الأيام التي أعقبت الحصار والاجتياح تفاجأ الطفلة أثناء عودتها من المدرسة بأن شجرتها مقتلعة ذابلة الأوراق ملقاة على الرصيف: «اقتلعوها ولم يرحموا كبرها، ولم يسمعوا لأنينها وصراخها، اقتلعوها واقتلعوا معها عالمي الجميل، اقتلعوا الأمل الذي طالما بنيته وحلمت به تحت ظلها، لم يرحموها لأنها رمز السلام زرعت في أرض السلام من أجل السلام. هكذا هم يقتلعون كل أمل في الحياة والوجود..».

وفي قصة «**الانتماء للأرض**» (٢٠٠٨) للطفلة فاطمة الزهراء حداد (١٣سنة/ القدس) تلعب الأشجار أيضاً دور البطولة، فشجرة السنديان تكون أول من يسمع هدير الجرافات (الإسرائيلية) القادمة لاقتلاعها، فتتحدى ذلك بصلابتها وجذورها الضاربة في الأرض، وتنبّه بقية الأشجار، فتتضافر أشجار الزيتون والخروب القائمة في الأرض منذ قرون مع أشجار الرمان والتين والعنب، وتقرر الأشجار الصمود والتحدي للجرافات وعدم الانحناء أمامها، وتضطرب الجرافات أمام هذا الصمود وهذا التحدي فتنقلب.

وإذا كانت هذه القصص صدى للهجمة الاستيطانية الشرسة التي استهدفت الأشجار في المدة الأخيرة، وخاصة أشجار الزيتون، فإن اختيار الكاتبة هنا شجرة سنديان لتقود الصمود والتحدي أمام الجرافات دلالة قوية، فالسنديان شجر صلب ينبت في الصخور ويعمر طويلاً. وقد كان دائماً رمزاً للصمود والتحدي في الشعر الفلسطيني.

وتحكي قصة «**شجرة جدي**» (٢٠٠٩) للطفلة إسراء المصري (العمر غير محدد/ مخيم عسكر) عن العلاقة المتبادلة بين الإنسان والشجرة، فالإنسان يحتاج إلى الشجرة وعطائها، والشجرة تحتاج أيضاً إلى عناية الإنسان لكي تتمكن من منحة ثمارها وظلالها.

والشجرة أيضاً هنا ترتبط بالجد الذي يحضر دائماً في قصص الأطفال ليمثل اتصال الذاكرة الحضارية وامتدادها بين الأجيال، ويجلس الجد تحت الشجرة ويحكي للأطفال عن أهمية هذه الشجرة، وهي هنا شجرة التفاح، فقد سمعها ذات يوم تبكي لأن صاحبها أهملها وهجرها وذهب إلى المدينة، فيقرر الاعتناء بها ورعايتها. ومنذ ذلك الحين تنشأ العلاقة بين الجد والشجرة، وهنا تتدخل الشجرة لتؤمن على كلام الجد. وهكذا تمتد هذه العلاقة في الجيل الجديد الذي يواصل التمسك بتراثه الحضاري الزراعي، بما يمثل من فعل إنساني جوهره العطاء المتبادل والحياة السلمية التي ترمز إليها الشجرة المثمرة.

٤- موضوعات واتجاهات وقيم أخرى

٤-١ الإعاقة:

تتحدث خمس قصص على الأقل عن الإعاقة حاملة في ثناياها اتجاهات إيجابية نحو المعاقين ووعي بوجودهم وأهمية دمجهم في الحياة والمجتمع.

فقصة «**لماذا**» (٢٠٠٢) للطفلة هبة محمد الأغا (٥, ١٤ سنة/ خانيونس) تتحدث عن طفل معاق يلقى اضطهاداً ومعاملة سيئة من أبناء عمه الذين يضربونه ويعتدون عليه لشعورهم بالغيرة منه لما يلقى من معاملة خاصة من أهله مراعاة لإعاقته، ولكن نظرتهم إليه ومعاملتهم له تتغير إيجابياً بعد أن يعامل الطفل المعاق معاملة عادية بدون تمييز، ويصبح مقبولاً بصفته فرداً عادياً منهم، كل ذلك جاء في بناء محكم ولغة قوية لم يضعفها سوى نبرة الوعظ والإرشاد المسيطرة عليها.

أما قصّة «**النور والأمل**» (٢٠٠٢) للطفلة نسمة الغول (١٢ سنة/ غزة) فتتحدث بلسان المتكلم عن طفلة عانت من تفاقم مشكلة ضعف البصر لديها مما دفع أهلها إلى نقلها إلى مدرسة مكفوفين حيث تتعلم القراءة بطريقة بريل. والساردة تتحدث عن تجربتها بشكل عادي، ودون أية نبرة من الألم والمرارة أو شعور بالنقص، بل على العكس فإنها تشعر بالسعادة بين زملائها وزميلاتها المكفوفين.

وفي قصة «**إلى أين**» (٢٠٠٧) للطفلة أفنان عدلي حسونة (١٢ سنة/ غزة) فربما تكون من أفضل القصص التي تناولت موضوعة الإعاقة بواقعية وحيوية في التصوير. تتحدث القصة عن طفلة مرحة اسمها لولو تلعب في الشارع لأنه لا مكان آخر لها تلعب فيه، فتصدمها سيارة مما يؤدي إلى بتر ساقها. يصيبها اليأس والقنوط رغم تشجيع الأهل والجيران، وتتحامل على نفسها أخيراً وتذهب إلى المدرسة على كرسي مدولب فتستقبلها المديرة والمدرسات وتنقل المديرة صفها إلى الطابق الأرضي. تروي لها صديقتها عن حفل تخريج طلبة الجامعة الإسلامية ويكون الأول على قسم الكمبيوتر طالب على كرسي مدولب يذهب لاستلام شهادته كأنه ملاك تتناثر حوله البالونات الملونة، فتطير الصديقة لتخبر لولو عما شاهدت فتقول لها لولو: أرجوك كوني دائماً بقربي، وتعدها بالاجتهاد والمواظبة وتتذكر الحكمة القائلة: «الإنسان لم يخلق للهزيمة».

وتتحدث قصة «**سارة وكرة السلة**» (٢٠٠٩) للطفلة كوثر عبدالله الفرا (١٥ سنة/ خانيونس) عن طفلة اسمها سارة تولد معاقة حركياً، غير أنها تنشأ مقبلة على الحياة، وهي تحب لعبة كرة السلة بشكل خاص إلا أنها لم تستطع ممارستها بسبب إعاقتها الحركية. تشكو لأبيها ذلك فيهيئ لها في باحة البيت الخلفية ملعبا لكرة السلة تمارس فيه سارة هوايتها المفضلة مع أفراد عائلتها وهي على الكرسي المدولب. وفي أحد الأيام تحضر مباراة في كرة السلة، وحين تصاب إحدى اللاعبات تصر سارة على أن تحل محلها فيسمح لها بعد تردد، فتحرز أهدافاً كثيرة ويفوز فريقها.

وتربط قصة «**لم تشفع له إعاقته**» (٢٠٠٩) للطفلتين هبة الشرفا ويسرى الحربي، (العمر غير محدد) من غزة، بين الإعاقة والواقع الفلسطيني الاستثنائي الذي يقع فيه الناس معاقين وغير معاقين ضحايا لهمجية الاحتلال. وهذه القصة أشبه بتقرير صحفي عن مقتل الطفل المعاق المصاب بمتلازمة داون[١] أحمد جابر خويج وأبيه جابر وشقيقته فادية وشقيقه محمود بصاروخ أطلقته طائرة إسرائيلية دفنهم تحت ركام منزلهم، وعلى الرغم من طريقة القصة الإخبارية إلا أنها تنجح على مستوى السرد في توصيل رسالتها وإحداث تأثيرها ببساطة وبراءة من خلال رواية طفلة زميلة للطفل

١ وهو ما يعرف بالطفل المنغولي.

المعاق في جمعية «الحق في الحياة»، وفي نهاية القصة تصرخ الساردة بالضحايا قائلة: «إلى أين والله أنتم ذاهبون؟» فيضحكون في وجهها قائلين: «إلى الجنة أن شاء الله، هناك موعدنا».

٤-٢ البيئة:

أظهرت بعض نصوص الأطفال في فلسطين وعياً واضحاً ومتزايداً بقضية البيئة وضرورة المحافظة على المحيط الحيوي بعناصره النباتية والحيوانية المتنوعة. وقد اندمج هذا الموضوع بموضوع الانتفاضة وخاصة ما تعرضت له الأشجار المثمرة والحرجية من اقتلاع وتجريف واجتثاث عبّرت عنه قصص الأطفال، وربطت بين بقاء الأشجار وصمود الشعب الفلسطيني على أرضه ومحافظته على سمات هويته الحضارية، رابطة بذلك الموضوع البيئي بالمسألة الوطنية مثلما مر في (٤-٢).

ولكن بعض القصص خصصت لموضوعة البيئة وإن كان بالإمكان قراءتها على مستويات رمزية أخرى أيضاً كما في قصة «**الفراشات والطبيعة**» (٢٠٠٣) للطفلة سامية سامي أبو غالي (١٤ سنة/ خانيونس) التي تتحدث عن فراشة تتعرض لمضايقة الأطفال فتعود إلى أمها باكية وتخبرها بما حدث، فتقول الفراشة الأم: «متى يتعلم الأطفال أن للفراشات أماً تحزن مثل كل الأمهات؟ متى يتعلمون حبّ الفراش والطبيعة؟»

وإذا كانت القصة السابقة تدخل إلى موضوعة الطبيعة من خلال كائن لطيف يرمز إلى الجمال هو الفراشة، فإن قصة «**وردة من عالم آخر**» (٢٠٠٣) للطفلة فداء الرجيلات (١٢ سنة/ رفح) كذلك تتناول هذا الموضوع من خلال عنصر لا يقل جمالاً هو الوردة هنا.

وهذه القصة مروية على لسان وردة يحضرها طفل يعشق الأزهار اسمه أحمد من أمريكا بعد زيارة لأخيه الذي يعيش هناك. في الطائرة تشعر الوردة بالغربة، وبعد أن يزرعها بين الأزهار الأخرى تتعرف على أنواع جديدة من الأزهار إلا أنها أخذت تذبل شيئاً فشيئاً بسبب تغير المناخ وطبيعة الأرض، وتموت لأن «.. كل كائن حي له أرض يعيش عليها أما هذه الزهرة فلم تستطع سرد روايتها إلا من العالم الآخر». وبذلك فإن القصة رغم بساطتها تتضمن تورية ناجحة ويمكن تأويلها على مستويات أخرى وقراءتها بأنها ترميز للواقع.

وتشبه قصة «**نبتة الياسمين**» (٢٠٠٣) للطفل خالد بسام شلايل (١٣ سنة/ معسكر دير البلح) القصة السابقة، فالشخصية الرئيسة هنا أيضاً هي نبتة ياسمين. تتحدث القصة عن طفل يحاول أن يمسك بعصفور عن شجرة ياسمين فتتحطم أغصانها، فيؤنبه معلمه على ذلك، ويقص على الأطفال حكاية هذه النبتة؛ فقد كان هناك طفلة اسمها ياسمين تدهسها سيارة فيحزن أبوها حزناً شديداً ويقرر زراعة شجرة الياسمين هذه في الحديقة العامة تخليداً لذكراها، فتنبت الشجرة وكأن الروح عادت لتدب في الطفلة ياسمين، أو كأن حياتها وجدت لها استمراراً جديداً في هذه الشجرة الجميلة، أو كأن الياسمينة تتقمص روح الطفلة المتوفاة، فالشجرة تومئ للأطفال باسمة حين يودعونها.

ولعل أبرز ما يمكن ملاحظته في هذه القصة وسواها من القصص المتعلقة بالبيئة والأشجار هي ما يضفيه عليها الأطفال من حياة وأنسنة، وما يبثون فيها من مشاعر بشرية، وهو توجه ينم عن وعي بيئي عميق يبدعه خيال بريء خلاق.

٤-٣ موضوعات أخرى

هناك عدد آخر من القصص التي تتضمن قيما واتجاهات تربوية واجتماعية وأخلاقية إيجابية، تبدو أحيانا ذائبة في العناصر السردية المختلفة، وأحياناً أخرى على شكل خلاصة أخلاقية مقصودة.

ومن هذه القصص قصة «**من فضلك**» (١٩٩٨) للطفلة ولاء البكري (٩ سنوات/ بيت لحم) التي تتحدث بطريقة غير مباشرة عن اللياقة والتهذيب وخاصة عند طلب شيء من الآخرين، فالأم تعلّم طفلتها أن تطلب ما تريد من الآخرين بلطف وكياسة، وذلك من خلال أمثولة رمزية عن مغارة مليئة بالكنوز لا يمكن فتحها بأية قوة، غير أن عبارة «من فضلك» السحرية قادرة على فتح المغارة للولوج إلى كنوزها الثمينة.

ومن القصص ذات البعد التربوي التي تحتوي على عبرة سلوكية يستخلصها الطفل بعد أن يكون قد مرّ بتجربة معينة، قصة «**لم تعد لعبتي صديقتي**» (٢٠٠٢) للطفل صابر أيوب النابلسي (١٠ سنوات/ القدس) التي تتحدث عن طفل كان مجتهداً جداً في دروسه يطلب من أبيه مكافأة على تفوقه لعبة محطة ألعاب (play station)، فيحضرها له أبوه، غير أن هذا الطفل المجتهد يغدو مدمناً جداً على اللعبة فيهمل واجباته ويتأخر في تحصيله الدراسي، فيحرمه أبوه من اللعب إلا بمقدار محدد وبعد أن ينجز واجباته المدرسية. والقصّة كما هو واضح ذات خلاصة تربوية مباشرة تعطي انطباعاً بتدخل الكبار في صياغتها، فلغتها على أية حال لا تشي بلغة طفل في العاشرة من عمره.

أما قصة "**القراءة أولاً**» (٢٠٠٣) للطفل أحمد خليل أبو هاشم (١٥ سنة/ رفح) فهي قصة ناجحة من حيث بنائها السردي وانسجام عناصرها وقدرتها على توظيف تقنية الحلم بمهارة واضحة. تتحدث القصة بأسلوب مشوّق عن تلميذ لم يجد اسمه في قوائم الناجحين، ويصور وقع هذا الأمر على والديه ومدى خيبة الأمل التي لمسها في عيني والده، فيصاب باختناق ويحاول أن يصرخ ولكنه لا يستطيع، فيستيقظ ليكتشف أن كل ذلك كان حلماً. إن خيال القصة قريب ولكن قدرتها على التشويق جعلتها من أكثر القصص نجاحاً في تصوير هموم الأطفال الدراسية ودوافعهم نحو النجاح والتفوق.

وأما قصّة «**الثأر ليس الحل**» (٢٠٠٣) للطفل محمد عبد الرحيم محمد (١٥ سنة/ غزة) فترفع شعاراً مدنياً يشجب عادة الثأر ويحذّر منها، وهي مكتوبة بطريقة مباشرة. تتحدث القصة عن المزارع الشيخ أحمد الذي يقتله ابن جاره، وعندما يكبر ابنه ويتخرج مهندساً زراعياً، ويفكر لوهلة في الثأر من قاتل أبيه، إلا أنه يتراجع عن هذا التفكير ويقرر أن يترك الكلمة الفصل للقضاء «لأن القضاء سلاح من أسلحة تطوير المجتمع وبنائه ومقاومة جرائمه والتفاعل بإيجابية مع الآخرين بعيداً عن التعصب والعنف والعداء والكراهية». ومثل هذا الوعظ الأخلاقي يشير إلى أن بعض الأطفال ما يزالون يفهمون القصة على أنها مجرد ذريعة لحمل رسالة أخلاقية إيجابية وتوصيلها إلى الآخرين.

وهناك قصة أخرى تتناول جانباً سلبياً كاد يختفي من المجتمع وهو زواج القصّر، هي قصة «**حياتي**» (٢٠٠٢) للطفلة رندة رامي (١٥ سنة/خانيونس) إلا أن بطلة القصة تصّر على موقفها المتمثل في رفض الزواج وإكمال دراستها فيكون لها ما تريد.

ويمكن اعتبار قصة «**حفل يضم الأهل والأصدقاء**» (٢٠٠٧) للطفل بهاء الدين على مفارحة (١٣ سنة / لقيا – رام الله) ذات مضمون يتصدى للتمييز على أساس اللون أو الشكل أو النوع، فالشحرور غندور يقيم وليمة عشاء كبيرة يدعو إليها جميع الأهل والأصدقاء بمناسبة زفافه على غندورة. يريد الصرصور (مقهور) المشاركة في الاحتفال الذي أقيم على الشجرة غير أن أحد الشحارير يطرده، ولكن زوجة الشحرور تلومه على ذلك قائلة إننا جميعا مخلوقات الله وعليك أن تدعوه، فيخجل غندور ويدعو مقهور ويطيب خاطره.

خلاصة عامة

- أظهرت كتابات الأطفال استجابة عفوية واضحة للواقع الفلسطيني وخاصة في السنوات الممتدة منذ منتصف التسعينات حتى ٢٠٠٩، وهي الفترة الزمنية التي عايشتها هذه الكتابات، وقد تمثل ذلك أولاً في كتابات الأطفال عن طفولتهم الأولى وعالم الطفولة السعيد، ثم وقائع الانتفاضة الثانية وما وقع فيها من أحداث حفرت عميقاً في وجدان الأطفال ومن ثم في نصوصهم، مثلما يتمثل ذلك في كتابات أطفال غزة على نحو خاص، إضافة إلى متابعة بعض هذه النصوص للسردية الفلسطينية الكبرى المتمثلة في النكبة الفلسطينية وروايتها، وهذا، كما يبدو، استجابة لحضور هذه الرواية في الذاكرة وامتدادها من جيل إلى جيل مثلما يتبدى ذلك في إحياء ذكرى النكبة السنوي، وهي موضوعات ارتبطت في كتابات الأطفال بقيم وطنية متعددة أساسها الصمود والتمسك بالحق وبالرواية الفلسطينية الخاصة. وإضافة إلى ذلك فقد أظهرت هذه الكتابات استجابات لقضايا اجتماعية أخرى مثل البيئة والمعاقين وما يرتبط فيها من قيم واتجاهات تنمّ عن وعي الأطفال لمثل هذه القضايا الهامة.
- تفاوتت هذه النصوص في مستوياتها الفنية تفاوتاً واضحاً، فبعضها كان ناجحاً في تقديم رؤيته وإحداث أثره من خلال تآزر عناصره السردية، وبعضها الآخر جاء مباشراً وعظياً هدفه الأساسي إبلاغ خلاصة أخلاقية أو وطنية مقصودة.
- على الرغم من مأساوية بعض الأحداث التي مرّ بها الأطفال مباشرة أو شاهدوها عن كثب في سنوات الانتفاضة الثانية، إلا أن نصوصهم التي تحدثت عن ذلك لم تعكس أية كراهية أو حقد، فالحسّ الفاجع الذي ساد في بعض النصوص لم يفسد روح الطفولة والنظرة البريئة إلى العالم والأشياء، وظلّت الرغبة في الحياة الحرة الكريمة المطمئنة هي ما تعبّر عنها هذه النصوص.
- بعض النصوص يشير إلى تدخل الكبار في لغتها وبنائها، وبعضها الآخر ظلّ يحمل أخطاء لغوية، بل وموضوعية أيضاً، كان يمكن تصويبها أثناء التحرير. وهذا يقود إلى ضرورة التأكد من أن جميع النصوص المنشورة هي من إبداع الأطفال الذين مهروها بأسمائهم الصريحة، ويمكن في حالة الشك مقابلة الأطفال وطلب نصوص أخرى من إنتاجهم وعقد مقارنة بينها للتوصل إلى حكم بأصالة هذه النصوص أو بانتحالها.
- يقترح اختيار أفضل هذه النصوص من ناحية المستوى الفني، وخاصة في باب القصة القصيرة، وإعادة نشر النصوص المنتخبة في مجموعة خاصة، أو حتى ترجمتها إلى لغات أخرى، فبعض القصص التي كتبها الأطفال تستحق ذلك لقدرتها على التعبير عن واقعها تعبيراً إبداعياً خلاقاً.

استنتاجات وتوصيات

- يمكن للدارس ملاحظة توفر طاقات إبداعية واعدة بين أطفال فلسطين تزدهر أكثر في أجواء الحياة الآمنة بعيداً عن الخوف والتوتر والقلق والتهديد؛ فالقصص التي كتبت قبل الانتفاضة الثانية كانت تشير إلى احتفال الأطفال بالحياة والشعور بالسعادة في الأسرة والمدرسة والمجتمع، أما الانتفاضة الثانية فقد نقلت الأطفال دفعة واحدة إلى هموم الكبار وعالم السياسة الكئيب وواقعها الثقيل.

- كان واضحاً جداً أن القصص التي كتبها أطفال الناصرة والقدس وبيت لحم، على سبيل المثال، كانت أكثر قرباً من عالم الصغار البهيج، في حين كانت القصص التي كتبها الأطفال في قطاع غزة بشكل خاص أقرب في موضوعاتها إلى عالم الكبار، والسبب في ذلك هو الواقع المأساوي الذي تركز في غزة على مر السنين والذي رافق حياة الأطفال فيها منذ نشأتهم الأولى، وخصوصاً الحرب الأخيرة والتي كانت الأعنف. هذا لا ينفي تأثر أطفال فلسطين أينما كانوا بالاحتلال وممارساته، والذي تجلى في الكثير من كتاباتهم، إلا أن أطفال المدن الفلسطينية ربما شهدت حياتهم فترات من الاسترخاء منحتهم الفرصة للعودة إلى طفولتهم وأحلامهم البريئة أحياناً، الأمر الذي لم يعشه الأطفال في غزة بسبب الحصار الدائم والقتل المستمر وعدم الاستقرار على أي مستوى من المستويات.

- نجد أن حب الوطن والانتماء للأرض والقضية قيم أساسية في أغلب قصص الأطفال، ولكن وجود هذه القيم لم يمنع بعض الأطفال من التعبير عن معاناتهم من أزمة الانتقال بعد عودتهم إلى الوطن، أو صدمة الانتقال إلى مكان جديد، علماً أن أزمات الانتقال والتكيف والشعور بالغربة والنفي والانتقال من مكان إلى مكان هي أبرز ما عانى منه الأطفال الذين عاشت أسرهم في الخارج قبل رجوعهم واستقرارهم في الوطن.

- صدمة فقد الأهل والأصدقاء والزملاء والأقارب وهدم البيوت هي أكثر التجارب الوجدانية تأثيراً في سيكولوجية الأطفال، علماً أن بعض القصص تظهر في الوقت نفسه، قدرة شفاء قوية لدى الأطفال وسرعة تعافٍ من الأزمات النفسية والوجودية التي مروا بها، وخاصة إذا تلقوا الرعاية والاهتمام الكافيين.

- قد يكون الأطفال، كما تظهر بعض القصص، من أسرع فئات المجتمع استجابة للاتجاهات والقيم الجديدة، مثلما يتبدى ذلك في الاتجاهات نحو البيئة والمعاقين والممارسات السلوكية الإيجابية المختلفة.

- فيما يتعلق بالقضايا الأساسية، فإن وعي الأطفال لا يقل في تناوله للأمور عن وعي الكبار، ولكنه أكثر براءة في نظرته للعالم والأشياء، مثلما أنه أكثر مباشرة وأقل تعقيداً وتركيباً.

- أظهرت بعض القصص قدرة على الترميز، فقد استطاع الأطفال فيها تقديم رؤاهم في بنى لغوية فنية غير مباشرة من خلال الرمز الموحي والمقنع.

- أظهرت المشاركات التي تندرج ضمن إصدار كتابي الأول أن هناك تركيزاً لمناطق دون غيرها، وأن لغزة الحصة الأكبر فيما ينشر من قصص ورسومات، على الرغم من تعميم التجربة بشكل متساوٍ على كل المناطق ووصولها إلى كافة المدارس والمكتبات والجهات التي تعمل مع الأطفال في المدن المختلفة.

- أهم ما يمكن لمسه في هذه القصص هو الرغبة في الحياة الحرة والشعور بالسعادة في حياة هانئة عادية مثل بقية البشر.

- توفّر هذه القصص والكتابات مادة وثائقية هامة عن عالم الطفل وطريقة تفكيره وزوايا رؤيته للواقع والأشياء، وأسلوب تعبيره عن هذا الواقع أو عن رغباته وهمومه وقلقه وآماله... إلخ، يمكن أن تكون مفيدة جداً لكتّاب أدب الطفل من الكبار.

- أقترح تكثيف عقد ورشات عمل أو إقامة مخيمات كتابة إبداعية للأطفال الذين تظهر كتاباتهم الأولى طاقات أو إمكانات إبداعية واعدة.
- يمكن في المستقبل إجراء مسابقة كتابي الأول حول أفضل قصة في موضوع معيّن مثل البيئة أو الإعاقة أو قصة الحيوان أو غيرها من الموضوعات التي تتجدد بين كل مسابقة وأخرى.

المصادر

١. **مشيئة الله**. تأليف جوانا جوني شاما. رسوم رشا وادي. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٧).

٢. **أنا وقطتي النغنوشة**. تأليف ورسوم سيرين الياس زريق. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٧).

٣. **الصوص المحبوب**. تأليف ورسوم أريج بواردي. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٧).

٤. **سيرة حياة شاب وشابه**. تأليف صهيب طوطح وسهى خالد عسيلة. رسوم ماهر فارس. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٧).

٥. **الكتاب صديقي**. تأليف غريس عواد. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

٦. **من فضلك**. تأليف ولاء البكري. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

٧. **حياتنا في الماضي**. تأليف ريم صالح كناغة. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

٨. **دعاء وحلمها**. تأليف دعاء التعامرة. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

٩. **أيام جدتي**. تأليف مريم عبد الرحيم دعيس. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

١٠. **أنا وطفولتي**. تأليف ربى حنا. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

١١. **الحلم أصبح حقيقة**. تأليف ورسوم أمينة خلف. رام الله - مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

١٢. **طفولتي**. تأليف ورسوم ياسمين إبراهيم عليان. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٨).

١٣. **عودة الطيور المهاجرة**. تأليف سليمان أحمد سليمان. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٩).

١٤. **دربي**. تأليف روان عدنان محمد داغر. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٩).

١٥. **العصفوران المحبوبان**. تأليف شيماء نادر جلال. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٩).

١٦. **طفولتي في سطور**. تأليف ربى مفيد الشريف. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (١٩٩٩).

١٧. **قصة نورس**. تأليف نورس كرزم. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٠).

١٨. **صداقة ممنوعة**. تأليف ورسوم مها الحايك. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٠).

١٩. **كتابي الأول** – قصص من كتابات الأطفال (إصدار خاص). رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٢).

٢٠. **كتابي الأول** – قصص من كتابات أطفال فلسطي. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٣).

٢١. **كتابي الأول** – قصص من كتابات أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٣).

٢٢. **كتابي الأول** – قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٥).

٢٣. **كتابي الأول** - قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٥).

٢٤. **كتابي الأول** - قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٦).

٢٥. **كتابي الأول** - قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٧).

٢٦. **كتابي الأول** - قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٨).

٢٧. **كتابي الأول** - قصص كتبها ورسمها أطفال فلسطين. رام الله – مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، (٢٠٠٩).